الباب الثاني

مقدمات التفاسير

١- تفسير القرآن العزيز: لعبد الرزاق بن همام بن نافع الصنعاني ت(٢١١هـ)

٢- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ت(٣١٠هـ)

٣- تفسير القرآن العظيم: لأبي الليث نصر بن محمد السمرقندي ت(٣٧٣هـ)

٤- النكت والعيون في تأويل القرآن الكريم: لأبي الحسن علي بن حبيب الماوردي ت(٤٥٠هـ)

٥- الوسيط في تفسير القرآن المجيد: لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي ت(٤٦٨هـ)

٦- معالم التنزيل: لمحيي السنة أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي ت(٥١٦هـ)

٧- المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز: لأبي محمد عبد الحق بن عطية ت(٥٤٦هـ)

٨- زاد المسير في علم التفسير: لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي الجوزي ت(٥٩٧هـ)

٩- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان: لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْحْ الخزرجي القرطبي الأندلسي ت(٦٧١هـ)

١٠- تسهيل السبيل لعلوم التنزيل: لمحمد بن أحمد بن محمد بن جزيّ الكلبي ت(٧٤١هـ)

١١- لباب التأويل في معاني التنزيل: لأبي الحسن علاء الدين علي بن محمد الشيحي البغدادي المعروف بالخازن ت(٧٤١هـ)

١٢- البحر المحيط في التفسير: لأبي عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن حيان الغرناطي الشهير بأبي حيان ت(٧٤٥هـ)

١٣- تفسير القرآن العظيم: للحافظ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ت(٧٧٤هـ)

obeikandl.com

١- تفسير القرآن العزيز

لعبد الرزاق بن همام بن نافع الصنعاني المتوفى سنة (٢١١هـ)

أولا: التعريف بالمؤلف:

مؤلف هذا التفسير هو الإمام الحافظ أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الصنعاني المولود سنة ست وعشرين ومئة للهجرة (١٢٦هـ)[١].

ولد المصنف في أسرة علم وفضل وصلاح، وتربى في حجر أبيه الذي أولاه الرعاية والاهتمام، وقد كان والده من أهل العلم، يروي الحديث عن سالم بن عبدالله[٢] وغيره[٣]، فنشأ عبد الرزاق نشأة سليمة، وانكب على الدرس والمطالعة، وصرف الوقت في طلب العلم، وارتحل لذلك فطاف الحجاز والشام والعراق[٤]، حتى تصدر المجالس، ولقي الكبار، وأخذ عن

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي: ٩/ ٥٦٣- ووفيات الأعيان لابن خلكان: ٣/ ٢١٦.

(٢) هو سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، كان من خيار الناس وفقهائهم، توفي بالمدينة سنة (١٠٦هـ).انظر: المعارف لابن قتيبة: ١٨٦- وسير أعلام النبلاء للذهبي: ٤/ ٤٧٥.

(٣) انظر المعارف لابن قتيبة ٢٢٦.

(٤) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي ٩/ ٥٦٤.

المشاهير، فحفظ نحواً من سبعة عشر ألف حديث[١].

وثَّقهُ غير واحدٍ من الأئمة، وحديثه مخرَّج في الصحاح[٢]، ونعته الذهبي بالحافظ الكبير وعالم اليمن[٣]، وقد شهد المشاهير بعلمه وأشادوا بحفظه وعلو منزلته، فعن علي بن المديني قال: قال لي هشام بن يوسف[٤]: كان عبد الرزاق أعلمنا وأحفظنا.[٥]

وقال شيخ عبد الرزاق معمر بن راشد، وهو أكثر من روى عبد الرزاق الحديث عنه، قال: أما عبد الرزاق فإن عاش فخليق أن تضرب إليه أكباد الإبل. قال ابن السري: فواللّه لقد أتعبها.[٦]

شيوخه وتلاميذه:

أكثر عبد الرزاق الحديث عن معمر بن راشد، وهو شيخه في أغلب ما يرويه في تفسيره، كما حدَّث عن عبيداللّه بن عمر وعن أخيه عبداللّه،

---

(١) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر ٦/ ٣١٤.

(٢) انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ١/ ٣٦٤.

(٣) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي ٩/ ٥٦٣.

(٤) هو هشام بن يوسف الصنعاني، من أقران عبد الرزاق، ثقة متقن، توفي سنة (١٩٧هـ). انظر: تهذيب الكمال للمزي: ٣٠/ ٢٦٥- وسير أعلام النبلاء للذهبي: ٩/ ٥٨٠- .

(٥) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي: ٩/ ٥٦٦.

(٦) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر ٦/ ٣١١.

وعن هشام بن حسان[١]، وابن جريج، والأوزاعي، وسفيان الثوري، وغيرهم من كبار التابعين. أما تلامذته، فقد صدق معمر حين قال: ستضرب إليه أكباد الإبل.

وقد عمَّر عبد الرزاق طويلاً، وذاع صيته، وعلم الناس فضله وعلمه وكثرة تحمله، فشدوا إليه الرحال، وأقبلوا عليه من كل حدب وصوب، وكان منهم الأئمة المعتبرون كالإمام أحمد بن حنبل، وابن راهويه[٢]، وابن معين[٣]، وعلي بن المديني، وغيرهم، كما حدَّث عنه شيخه سفيان بن عيينة.[٤]

---

(١) هو هشام بن حسان الأزدي، إمام حافظ محدث، قيل: رأى أنس بن مالك، كان من البكائين، توفي سنة (١٤٦هـ). انظر: طبقات خليفة: ٢١٩- وسير أعلام النبلاء للذهبي: ٦/ ٣٥٥.

(٢) هو إسحاق بن إبراهيم بن مخلد المروزي، الملقب بابن راهوية: أي المولود في الطريق. إمام كبير، وشيخ المشرق في عصره، وسيد الحفاظ، توفي سنة (٢٣٧هـ). انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان: ١/ ١٩٩- وسير أعلام النبلاء للذهبي: ١١/ ٣٥٨.

(٣) هو يحيى بن معين بن عون الغطفاني، إمام في الحديث، ثقة مأمون، له الكنى والأسماء، توفي سنة (٢٣٣هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ١١/ ٧١- تاريخ بغداد للخطيب: ١٤/ ١٧٧.

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ٩/ ٥٦٤، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٣/ ٢١٦.

مؤلفاته:

ذكر العلماء أن عبد الرزاق صنف كثيراً، وأن من أشهر ما صنفه:

«تفسير القرآن العزيز» و«المصنف الكبير» وهو «الجامع الكبير» و«السنن» في الفقه و«المغازي» و«الأمالي في آثار الصحابة» [١].

وفاته:

فقد الحافظ الكبير بصره بعد المائتين للهجرة، وتوفي في منتصف شوال سنة إحدى عشرة ومائتين (٢١١هـ) عن عمر يناهز الخامسة والثمانية باليمن، رحمه اللّه تعالى[٢].

ثانياً: التعريف بالتفسير والمقدمة:

يمثل هذا التفسير نموذجاً فريداً بين أيدينا من تفاسير القرن الثاني للهجرة، يعطي صورة واضحة عن لون التفسير السائد في ذلك العصر وهو

---

(١) انظر كشف الظنون لحاجي خليفة: ١/ ٤٥٢- وهدية العارفين لإسماعيل باشا: ٥/ ٥٦٦- ومعجم المؤلفين لرضا كحالة: ٥/ ٢١٩- وتاريخ التراث العربي لسزكين: ١/ ١٤٤.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي: ٩/ ٥٨٠- ووفيات الاعيان لابن خلكان: ٣/ ٢١٧-. وينظر للمزيد في ترجمته: البداية والنهاية لابن كثير: ١٠/ ٢٥٦- وتذكرة الحفاظ للذهبي: ١/ ٣٦٤- وسير أعلام النبلاء للذهبي: ٩/ ٥٦٣- وشذرات الذهب لابن عماد الحنبلي: ٢/ ٢٧- وطبقات الحنابلة لأبي يعلى: ١٥٢- وطبقات المفسرين للداودي: ١/ ٣٠٢ - والفهرست لابن النديم: ٢٢٨ - وميزان الاعتدال للذهبي: ٢/ ٦٠٩ - والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي: ٢/ ٢٠٢- ووفيات الأعيان لابن خلكان: ٣/ ٢١٦.

التفسير بالأثر المجرد عن الرأي، إذ ليس فيه إلا ما هو مروي عن رسول ﷺ أو مسند إلى الصحابة والتابعين وتابعيهم، فهو من أقدم نصوص التفسير المسندة، ومصنفها متقدم على ابن جرير المتوفى سنة (٣١١هـ) بقرن كامل، فهومن أوثق ما وصل إلينا من غير تحريف ولا تبديل[١].

تتبع المصنف أقوال السلف في المعاني وأسباب النزول، ورواها بأسانيدها مرتبةً حسب ترتيب المصحف، وبالرغم من محاولة المصنف تجنب رواية الإسرائيليات، وخاصة ما تعلق منها بعصمة الأنبياء، أو تتنافى مع العقيدة، وظاهر نصوص الشريعة، إلا أنه ذكر بعض الروايات الساقطة التي رواها القوم[٢].

وقد قدم المصنف لتفسيره مقدمة موجزة ذكر فيها شيئاً من المروي في علوم القرآن، فهو بهذا يعد رائد هذا النهج، وأول من قدم للتفسير بعلوم القرآن.

وقد كان هذا التفسير إلى عهد قريب مخطوطاً حبيس المكتبات، طبع عليها الزمن آثاره، فوجد مبتوراً من أوله، مصاباً بالرطوبة في مواطن كثيرة منه، خاصة في بداياته، حتى قيَّض اللّه له من ينفض عنه غبار الأيام، ويخرجه للنور للمرة الأولى، فجزى اللّه القائمين على إحياء التراث خير

---

(١) انظر تفسير القرآن لعبد الرزاق الصنعاني، مقدمة تحقيق الدكتور مصطفى مسلم: ١/ ٥.

(٢) انظر: المصدر السابق: ١/ ٣٢.

الجزاء، وأجزل لهم المثوبة والأجر.

وحين صنفتُ التفاسير المرشحة للدراسة في هذا البحث جاء تفسير عبد الرزاق أول تفسير يحتوي مقدمة في علوم القرآن من حيث الترتيب الزمني للمؤلف، وحين عدت إلى التفسير بتحقيق الدكتور مصطفى مسلم وجدته - يحفظه الله - يذكر أن النسختين الوحيدتين للكتاب فيهما نقص من أولهما، مما اضطره الرجوع إلى تفسير الطبري والدر المنثور ليسد النقص بنقل الروايات الثابتة فيها عن عبد الرزاق، حتى استخرج منها ما يتعلق بتفسير سورة الفاتحة والقسم المحذوف من سورة البقرة،[1] وتمنيت لو أن فضيلته أثبت شيئاً من المقدمة، فالروايات التي جاءت فيها هي الأخرى على الراجح مبثوثة في الطبري والدر المنثور وغيرهما من كتب الأثر وعلوم القرآن، ثم صدرت طبعة أخرى للتفسير نفسه بتحقيق الدكتور عبد المعطي قلعجي يحفظه الله فوجدت المحقق استطاع أن يثبت شيئاً من تلك المقدمة التي لم يعثر عليها الدكتور مصطفى.

وقد جاءت مقدمة عبد الرزاق موجزة في أربع صفحات، روى المصنف فيها بعض الآثار حول علوم القرآن بأسانيدها، دون أن يعلق عليها، وهي طريقته في التفسير كله، ومجموع ما أورده المصنف تسعة آثار، الأول منها حول جمع القرآن، ويحمل العنوان نفسه، وهي مقدمة مستقلة،

---

(١) انظر: المصدر السابق: ١/ ٣٥.

أما المقدمة الأخرى فتحمل عنوان ما جاء فيمن قال في القرآن برأيه وهذا العنوان هو من إطلاق المصنف كما يظهر من الصفحة الأولى من المخطوط، بخلاف العنوان الأول فغير مقروء وقد يكون من عمل المحقق.

والآثار الأخيرة أوردها المحقق مبتورة لصعوبة قراءة بعضها، ولآثار الرطوبة التي أتلفت بعضها الآخر، والكلمات المبتورة ليست كثيرة، وأظن أنه كان من الممكن إثباتها لو تتبع المحقق ذلك في كتب التفسير، والله أعلم.

ولم تطبع المقدمة إلا هذه الطبعة، التي صدرت عن دار المعرفة ببيروت عام ١٤١١هـ، وهي متأخرة عن تحقيق الدكتور مصطفى مسلم للتفسير الذي ظهر عام (١٤١٠هـ) عن دار الرشد بالرياض، غير أن طبعة الدكتور مصطفى خالية من المقدمة.

ثالثاً: عرض موضوعات المقدمة:

ذكر المصنف في الرواية الأولى التي افتتح بها تفسيره جمع المصحف الذي تم على يد زيد بن ثابت، بأمر أبي بكر الصديق بناءً على رأي من عمر رضي الله عنهم أجمعين وهو الجمع الأول لكتاب الله.

أعقب ذلك بباب مستقل عن القول في القرآن بالرأي، والتحذير الشديد الوارد في ذلك، ثم بين أن التفسير على أربعة وجوه على ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما. بعدها روى أثراً في المعاني التي نزل القرآن عليها، ثم تاريخ نزول القرآن والكتب السابقة، بعدها نزول القرآن جملة

واحدة ليلة القدر، ثم نزوله منجّماً على رسول اللّه ﷺ.

رابعاً: منهج عبد الرزاق في مقدمته:

منهج عبد الرزاق في مقدمته أنه يسرد الروايات بسندها في المعنى الذي أراده دون أي تعقيب أو بيان، مكتفياً برواية واحدة في كل مسألة تعرض له.

obeikandl.com

٢- جامع البيان عن تأويل آي القرآن

لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ت (٣١٠هـ)

أولاً: التعريف بالمؤلف:

مؤلف هذا التفسير هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي الطبري، أبو جعفر[١].

ولد المفسر بآمُل طَبَرِسْتان[٢] سنة أربع وعشرين ومائتين، وقيل: خمس وعشرين[٣]، واستوطن بغداد إلى حين وفاته بها[٤]، يتردد على موطنه بين فترة وأخرى.

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي ١٤/ ٢٦٧- ومعجم الأدباء لياقوت: ١٨/ ٤٠- وطبقات المفسرين للداودي: ٢/ ١١٠.

(٢) هي من أكبر مدن طبرستان تقع في السهل، خرج منها كثير من العلماء غير أنهم ينسبون إلى طبرستان فيقال الطبري. انظر: معجم البلدان لياقوت: ١/ ٧٥.

(٣) سئل ابن جرير عن الخلاف الذي في مولده فقال: لأن أهل بلدنا يؤرخون بالأحداث دون السنين، فأرخ مولدي بحدث كان في البلد، فلما نشأت سألت عن ذلك الحادث فاختلف المخبرون لي فقال بعضهم: كان ذلك في آخر سنة أربع، وقال آخرون: بل كان أول سنة خمس وعشرين ومائتين. اهـ انظر: معجم الأدباء لياقوت: ١٨/ ٤٨.

(٤) انظر: معجم الأدباء لياقوت: ١٨/ ٤٠- وسير أعلام النبلاء للذهبي: ١٤/ ٢٦٧- وطبقات المفسرين للداودي: ٢/ ١١٠.

عاش ابن جرير حياته في عائلة ميسورة، ونشأ وترعرع في كنف والده الذي دفعه إلى التعليم منذ الصغر، ويسر له أسباب التلقي، فما كاد يبلغ سن الجلوس إلى أهل العلم حتى رأته أزِقّة آمُل متأبطاً دواته وقرطاسه، ملتحقاً بالكتاب ومتنقلاً من شيخ إلى آخر، ومن حلقة إلى أخرى، فحفظ كتاب اللّه وله سبع سنين، وصلى بالناس وهو ابن ثمان، وكتب الحديث وهو ابن تسع[1]، حتى إذا اشتد عوده، وفاق أقرانه، واعترفوا بتفوقه وأظهر الشيوخ إعجابهم به، لبّى الأب طلب ولده ورغبته في الترحال لطلب العلم، وتوجه أولى وجهته إلى دار السلام، وأنّى للأب أن لا يبارك الرحلة وهو الذي رأى ولده بين يدي رسول اللّه ﷺ ومعه مخلاة مملوءة حجارة، وهو يرمي بين يدي رسول اللّه ﷺ. الرؤيا التي عبرت بأن الولد إذا كبر نَصَحَ في دينه، وذبَّ عن شريعته، يقول ابن جرير: فحرص أبي على معونتي على طلب العلم، وأنا حينئذٍ صبي صغير[2].

ويكثر ابن جرير من الترحال، ويلتقي نبلاء الرجال، فيقرأ القرآن، ويسمع الحديث في العراق والشام ومصر والمغرب العربي حتى غدا بفضل اللّه أحد الأئمة الأعلام، يُحكم بقوله، ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله. ولم يضنّ رحمه اللّه علينا بسيرته وأخباره، فطالما حدَّث الرجل تلامذته وطلبته

---

(١) انظر: معجم الأدباء لياقوت: ١٨/ ٤٩.

(٢) انظر: معجم الأدباء لياقوت: ١٨/ ٤٩.

عن طفولته ونشأته وطلبه للعلم.

جمع علوماً كثيرة، فإضافة إلى حفظ كتاب اللّه عَرَفَ القراءات القرآنية، واجتهد في الفقه فكان عالماً بأحكام القرآن، بصيراً بمعانيه، عالماً بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها، ناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين[١]، حتى تفرد بمسائل حفظت له[٢] وعدّه السيوطي رأس المفسرين على الإطلاق[٣] ولقّبه المتأخرون بشيخ المفسرين.

شهد له البغدادي بأنه جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره[٤]، ووثقه الذهبي وعده حافظاً رأساً في التفسير، إماماً في الفقه والإجماع والاختلاف، علاّمة بالتاريخ وأيام الناس، عارفاً بالقراءات وباللغة وغير ذلك.[٥]

وكان ابن جرير شافعياً ثم انفرد بمذهب مستقل، وله أقاويل واختيارات، حين ملك أدوات الاجتهاد، واحتج لمذهبه، وله أتباع

---

(١) انظر: تاريخ بغداد للخطيب ٢/ ١٦٣- وسير أعلام النبلاء للذهبي ١٤/ ٢٦٩.

(٢) انظر: معرفة القراء الكبار للذهبي: ١/ ٢٦٤- طبقات المفسرين للداودي ٢/ ١١٠.

(٣) انظر: طبقات المفسرين للسيوطي: ٨٢.

(٤) انظر: تاريخ بغداد للخطيب: ٢/ ١٦٢.

(٥) ومنها العروض والحساب والطب، انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٤/ ٢٧٠.

ومقلّدون.[١]

وقد جمع ابن جرير إلى علمه ونبوغه الزهد والقناعة، والشجاعة والورع، وعفة النفس، والترفع عن الطلب، لا تأخذه في اللّه لومة لائم مع عظيم ما يلحقه من الأذى والشناعات من جاهل وحاسد وملحد[٢].

وكتب التراجم تزخر بكم هائل من أخباره في هذا الشأو، ولعل في إيراد شيء من شعره الرائق إظهار لبعض تلك المعاني، روي أن ابن جرير أنشد لنفسه:

إذا أعْسَرْتُ لم يَعْلَمْ رفيقي ... وأستغني فيستغني صديقي
حيائي حافظٌ لي ماء وجهي ... ورفقي في مطالبتي رفيقي
ولو أني سَمَحْتُ ببذل ماء وجهي ... لكنت إلى العلى سهل الطريق

وله أيضاً:

خُلُقان لا أرضى فَعَالَهُما ... بَطَرُ الغنى ومَذَلَّةُ الفقر
فإذا غنيتَ فلا تكن بَطِراً ... وإذا افتقرت فَتِهْ على الدهر[٣]

---

(١) انظر: طبقات المفسرين للسيوطي: ٨٢.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٤/ ٢٧٤- وطبقات المفسرين للداودي: ٢/ ١١٨.

(٣) انظر: تاريخ بغداد للخطيب: ٢/ ١٦٥- وسير أعلام النبلاء للذهبي: ١٤/ ٢٧٦- ومعجم الأدباء لياقوت: ١٨/ ٤٣.

تهمة وتحقيق:

اتهم ابن جرير بموالاة الشيعة، وبمناصرة مذهبهم الفاسد، يقول أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي، وأصله من آمُل، وكان يزعم أن أبا جعفر الطبري خاله:

بآمُلَ مَولدي وبنو جريرٍ فأخْوَالي ويحكي المرءُ خالَهْ
فها أنا رافضيٌّ عن تُراثٍ وغيري رافضي عن كَلالَهْ[1]

وقد ذكر الذهبي(٢) في الميزان أن فيه تشيُّعاً يسيراً، وموالاة لا تضر، وقال: أقذع أحمد بن علي السليماني الحافظ(٣) فقال: كان يضع للروافض. كذا قال السليماني! وهذا رجم بالظن الكاذب، بل ابن جرير من كبار أئمة الإسلام والمعتمدين، وما ندعي عصمته من الخطأ، ولا يحل لنا أن نؤذيه بالباطل والهوى، فإن كلام العلماء بعضهم في بعض ينبغي أن يتأنَّى فيه ولاسيما في مثل إمام كبير، فلعل السليماني أراد الآتي [يزيد محمد بن جرير بن رستم

---

(١) انظر: معجم البدان لياقوت: ١/ ٥٧.

(٢) هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني، أبو عبد اللّه الذهبي، إمام محدث حافظ، من كبار المصنفين في الرجال، له ميزان الاعتدال، وسير أعلام النبلاء، توفي (٧٤٨هـ). انظر: فوات الوفيات للكتبي: ٣/ ٣١٥- والدرر الكامنة لابن حجر: ٣/ ٣٣٦.

(٣) هو أحمد بن علي بن عمرو السليماني البخاري، الإمام الحافظ، محدث ما وراء النهر، صاحب التصانيف الكبار، عمر طويلاً وتوفي (٤٠٤هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٧/ ٢٠٠- وطبقات السبكي: ٤/ ٤١.

الطبري الرافضي][1][2]

قال الحافظ ابن حجر: ولو حلفت أن السليماني ما أراد إلا الآتي لبررت.[3]

ولا شك أن ابن جرير المفسر قد اتُّهم بالتشيع في حياته حتى إنه دفن بالليل خوفاً من العامة لهذه التهمة[4].

والذي أراه أن الأمر كان مجرد اتهام لا صلة له بالواقع، فابن جرير كما ذكر الذهبي من كبار أئمة الإسلام المعتمدين، غير أن الآثار والأحاديث التي رواها والتي تظهر مكانة آل البيت، وتحث على وجوب حبهم والثناء عليهم وهي كثيرة وما أملاه من فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم اللّه وجهه وهي كلها حق، ظن البعض أن ذلك ميل منه يرحمه اللّه إلى التشيع، والبون شاسع بين حب آل بيت رسول اللّه ﷺ الذين جاء الأمر بالصلاة عليهم مقرونين مع رسول اللّه ﷺ، وبين التشيع مذهباً عقدياً

---

(١) هو محمد بن جرير بن رستم الطبري الرافضي، صنف كتباً كثيرة في ضلالات الرافضة، له الرُّواة عن أهل البيت. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٤/ ٢٨٢- وطبقات أعلام الشيعة: ٢٥٠.

(٢) انظر ميزان الاعتدال للذهبي: ٣/ ٤٩٩.

(٣) انظر: لسان الميزان لابن حجر: ٥/ ١٠٠.

(٤) انظر: معجم الأدباء لياقوت: ١٨/ ٤٠.

وفكراً منحرفاً فاسداً.

والتهمة كما قال الذهبي رجم بالظن الكاذب، فابن جرير لم يترك آمُل بعد أن عاد إليها عالماً لا يشق له غبار إلا لما رأى من الرفض قد ظهر، وسب أصحاب رسول اللّه ﷺ بين أهلها قد انتشر، فانبرى لهم، وقام يملي فضائل أبي بكر وعمر رضي اللّه عنهما وهو خير دليل على دفع التهمة عنه يرحمه اللّه.

وحين سمع السلطان بما يمليه كره ذلك، وأرسل في طلبه يريد أن يؤذيه، فخرج من آمُل مختفياً لم يشعر به أحد.[١]

شيوخه وتلامذته:

كانت همة ابن جرير في طلب العلم عالية، فتلقى العلم عن كثير من أعيان علماء عصره في المشرق والمغرب، الذين أتاح له الترحال اللقاء بهم، حتى ارتوى من موردهم العذب الزلال، وهم كثير ذكر منهم الذهبي ما يربو على الخمسين، وذكر غيره غيرهم، وأذكر منهم الشيخ يونس بن عبد الأعلى[٢] والشيخ محمد بن حميد الرازي[٣]، والشيخ سفيان بن

---

(١) انظر: معجم الأدباء لياقوت: ١٨/ ٤٠.

(٢) هو يونس بن عبد الأعلى بن ميسرة بن حفص الصدفي، شيخ الإسلام، ثقة مقرئ حافظ، توفي (٢٦٤هـ). انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان: ٧/ ٢٤٩- وسير أعلام النبلاء للذهبي: ١٢/ ٣٤٨-

(٣) هو محمد بن حميد بن حيان الرازي، إمام علامة حافظ، قال الذهبي: وهو رغم إمامته=

وكيع[١]، وخلق كثير غيرهم من علماء الشام ومصر والعراق والمغرب[٢].

ومن تلامذته الذين تلقوا العلم عنه: ابن مجاهد، وأبو القاسم الطبراني[٣]، ومحمد بن أحمد الداجوني، وآخرون[٤].

مصنفاته:

ذكر الخطيب في تاريخه أن محمد بن جرير الطبري مكث أربعين سنة يكتب كل يوم أربعين ورقة،[٥] وهو خبر فيه مبالغة ظاهرة غير أنه يدل على عظيم ما صنفه ابن جرير، فالذي وصل إلينا من مصنفاته تؤكد أن

=منكر الحديث صاحب عجائب، وقال النسائي: ليس بثقة. توفي (٢٤٨هـ). انظر: تاريخ بغداد للخطيب: ٢/ ٢٥٩- وسير أعلام النبلاء للذهبي: ١١/ ٥٠٣.

(١) هو سفيان بن وكيع بن الجراح الكوفي الحافظ، محدث الكوفة، كان أحد أوعية العلم، لحقه لين، توفي (٢٤٧هـ) انظر: طبقات الحنابلة لأبي يعلى: ١/ ١٧٠- سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٢/ ١٥٢.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٤/ ٣٦٨- وإنباه الرواة للقفطي: ٣/ ٨٩- ومعجم الأدباء لياقوت: ١٨/ ٤١- وطبقات المفسرين للسيوطي: ٨٢- وللداودي: ٢/ ١١٧.

(٣) هو سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني، إمام، حافظ ثقة، محدث، سمع من ألف شيخ ويزيدون، وعنه خلق كثير، له تصانيف منها المعجم الكبير، توفي (٣٦٠هـ). انظر: ذكر أخبار أصبهان لأبي نعيم: ١/ ٣٣٥- والمنتظم لابن الجوزي: ٧/ ٥٤- وسير أعلام النبلاء للذهبي: ١٦/ ١١٩.

(٤) انظر المراجع السابقة.

(٥) انظر تاريخ بغداد للخطيب: ٢/ ١٦٣- وسير أعلام النبلاء للذهبي: ١٤/ ٢٧٢.

الرجل كان عالماً كاتباً، شغوفاً بالعلم، لا يترك علماً يمكنه تحصيله إلا سعى له، وأعد له العدة، حدَّث عن نفسه: أن رجلاً جاءه يسأله عن شيء في علم العروض ولم يكن قد نشط في هذا العلم فقال: إذا كان غداً تعال إليَّ. قال: وطلبت سفر العروض للخليل، فجاؤوني به، فاستوعبته في ليلة واحدة، فأمسيت غير عروضي، وأصبحت عروضياً.(١)

والناظر في مصنفات ابن جرير، إن أراد الفقه قال: هو فقيه فحسب، وإن أراد التفسير قال: هو رائد التفسير وفارسه بلا منازع. وإن أراد النحو والبلاغة والفصاحة قال: هو لغوي لا يحسن غيره. وكذا في القراءات والأحكام والحديث.

وإضافة إلى تفسيره الذائع الشهرة **فقد صنف ابن جرير الآتي:**

١) أخبار الملوك والأمم، مصنف في التاريخ مطبوع متداول، تؤكد كل صفحة منه إلمام المصنف بتاريخ العالم وأيام الناس.

٢) تهذيب الآثار، قال الخطيب: لم أر سواه في معناه لكن لم يتمه(٢). وقال الفرغاني أبو محمد(٣): هو من عجائب كتبه لكنه مات قبل تمامه(٤).

---

(١) انظر: معجم الأدباء لياقوت: ١٨/ ٥٦.

(٢) انظر: تاريخ بغداد للخطيب: ٢/ ١٦٣.

(٣) هو عبد الله بن أحمد بن جعفر خذيان الفرغاني، عالم وثقه ابن سرور، له التاريخ المذيل على تاريخ ابن جرير، توفي (٣٦٢هـ). انظر: تاريخ بغداد للخطيب: ٩/ ٣٨٩- وسير أعلام النبلاء للذهبي: ١٦/ ١٣٢.

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٤/ ٢٧٣.

٣) تاريخ الرجال، من الصحابة والتابعين وإلى شيوخه الذين لقيهم.

٤) لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام، قال الفرغاني: هو مذهبه الذي اختاره وجوَّده، واحتج له، وهو في ثلاثة وثمانين كتاباً[١].

٥) القراءات والتنزيل والعدد.

٦) الخفيف في أحكام شرائع الإسلام، وهو مختصر.

٧) التبصرة، وهي رسالة إلى أهل طبرستان يشرح فيها ما وقع بين أهل طبرستان من الخلاف، وفي مذاهب أهل البدع.[٢]

٨) اختلاف علماء الأمصار، وهو مطبوع.

وغيرها من المؤلفات التي ذكرها الحموي في معجمه[٣].

وقد تجلت شخصية ابن جرير في مؤلفاته واضحة بارزة، عكست بوضوح مدى ما وصل إليه من تحصيل العلوم، وقوة الحفظ والاستنباط.

وفاته:

نذر الطبري حياته للعلم، ورأى أن المتعة الحقيقية إنما هي في تعلم

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٤/ ٢٧٣- ومعجم الأدباء لياقوت: ٨/ ٨٠ وفيه: «البصير في معالم الدين».

(٢) انظر معجم الأدباء لياقوت: ١٨/ ٦٣ وما بعده.

(٣) انظر: معجم الأدباء لياقوت: ١٨/ ٥٥.

آية، أو رواية أثر أو حل معضلة، ولم يلتفت رحمه اللّه إلى الدنيا وزخرفها، حتى الزواج أشغله طلب العلم ثم التعليم عنه، فكان من جملة العلماء العزاب، يقول عن نفسه: أنا لا ولد لي، وما حللت سروالي على حرام ولا حلال قط. بل أفنى عمره الذي بلغ ستاً وثمانين سنة على الراجح في طلب العلم والمدارسة والتفقه في الدين وتعليمه.

وقد توفي يرحمه اللّه ببغداد في شهر شوال سنة عشر وثلاثمائة، يوم السبت مساءً، ودفن يوم الأحد[١] بداره برحبة يعقوب، وحضر وقت موته جماعة من أهل العلم فأوصاهم، وأكثر من التشهد وذكر اللّه، وغمض بصره بيده. ورثاه خلق من الأدباء، وأهل الدين، منهم ابن دريد[٢] في مرثية مبكية تدمي القلب، أظهر ما كان يحمل بين جنبيه من علم وفقه وفضل، ومن أبياتها:

إنَّ المنيَّة لم تُتْلِفْ بِهِ رَجُلاً ... بَلْ أتْلَفَتْ عَلَماً للدِّين مَنْصُوبا
أهْدَى الرَّدَى للثَّرى إذْ نالَ مُهْجَتَهُ ... نَجْماً عَلَى مَنْ يُعَادِي الحَقَّ مَصْبُوبَا
كانَ الزَّمانُ بِهِ تَصْفُو مَشَارِبُهُ ... فَالآنَ أصْبَحَ بالتَّكْدِيرِ مَقْطُوبا
أوْدَى أبو جَعْفر والعِلْم فاصْطَحَبا ... أعْظِمْ بِذَا صَاحِباً أو ذاكَ مَصْحوبَا[٣]

---

(١) انظر: معجم الأدباء لياقوت: ١٨/ ٤٠.

(٢) هو محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية البصري، شيخ الأدب، كان آية من آيات اللّه في قوة الحفظ، قيل عنه أشعر العلماء، وأعلم الشعراء، توفي (٣٢١هـ). انظر: معجم الأدباء لياقوت: ١٨/ ١٢٧- وسير أعلام النبلاء للذهبي: ١٥/ ٩٦.

(٣) انظر: ديوان ابن دريد: ٦٧- وسير أعلام النبلاء للذهبي: ١٤/ ٢٨٠. =

ثانياً: التعريف بالتفسير والمقدمة:

إن من بركة العلم أن ييسر اللّه للعالم من يحيي سيرته بعد وفاته، كأن يسخر من ينشرعلمه بإحياء مؤلفاته ومصنفاته، وإخراجها لطلبة العلم والباحثين في صورة تسهل الوقوف على مراده، وقد قيض اللّه لمفسرنا ابن جرير الطبري ولتفسيره فارسين من فرسان البلاغة والبيان فحققا أجزاءً منه خير تحقيق، ويسراه لطلبة العلم، حتى عُدَّ بحق من أفضل التفاسير المحققة(*).

وتفسير ابن جرير «جامع البيان» يعد من أنفس الآثار في التفسير، لكونه قد حوى إلى جانب بيان معاني الآيات علوماً كثيرة أخرى، أسس

=وينظر للمزيد في ترجمته: إنباه الرواة للقفطي: ٣/ ٨٩- والبداية والنهاية لابن كثير: ١١/ ١٤٥- وتاريخ بغداد للخطيب: ٢/ ١٦٢- وتذكرة الحفاظ للذهبي: ٢/ ٤١٠- وسير أعلام النبلاء للذهبي: ١٤/ ٢٦٧- وشذرات الذهب لابن عماد الحنبلي: ٢/ ٢٦٠- وطبقات الحفاظ للسيوطي: ٣١٠- وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي: ٣/ ١٢٠- وطبقات المفسرين للداودي: ٢/ ١١٠- وطبقات المفسرين للسيوطي: ٨٢- ولسان الميزان لابن حجر: ٥/ ١١٠- ومعجم الأدباء لياقوت: ١٨/ ٤٠- ومعرفة القرآء الكبار للذهبي: ١/ ٢٦٤ وغير ذلك.

(*) لقد حقق الكتاب كاملاً موخراً بتحقيق معالي الدكتور عبد ا لله بن عبد الحسن الذكي أمد ا لله في عمره وأبقاه وبارك في أعماله وخدماته للمسلمين وفي شتى ديار الإسلام.

المصنف بنيانها، ووضع اللبنات الأولى، وساق الروايات والأقوال بأسانيدها، ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وأما التفاسير التي في أيدي العامة فأصحها تفسير محمد بن جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين.[١]

ويقول الإمام ابن عطية: إن محمد بن جرير جمع على الناس أشتات التفسير، وقرب البعيد، وشفا الإسناد[٢].

وقد جوَّد ابن جرير تفسيره «تفسير القرآن» وبيّن فيه أحكامه وناسخه ومنسوخه، ومشكله وغريبه، ومعانيه واختلاف أهل التأويل والعلماء في أحكامه وتأويله، والصحيح لديه من ذلك، وإعراب حروفه، والكلام على الملحدين فيه، والقصص وأخبار الأمة والقيامة وغير ذلك[٣].

وهو تفسير على ما قال الإمام النووي[٤]: أجمعت الأمة على أنه لم

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/ ٣٨٥.

(٢) انظر المحرر الوجيز لابن عطية: ١/ ٣١.

(٣) انظر: طبقات المفسرين للداودي ٢/ ١١٤.

(٤) هو محيي الدين يحيى بن شرف بن مري النووي، إمام فقيه حافظ، ولي مشيخة دار الحديث، له تصانيف في الحديث والفقه وغيرهما، توفي (٦٧٦هـ). انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي: ٤/ ١٤٧٠- وشذرات الذهب لابن عماد: ٥/ ٣٥٤.

يصنف في التفسير مثله. وعده السيوطي من أجلِّ التفاسير لتميز منهجه،[١] ولهذا أيضاً استعاره ابن خزيمة[٢] من ابن خالويه وأبقاه عنده عدة سنوات، ثم قال مقولته: ما رأيت على أديم الأرض أعلم من ابن جرير[٣].

وقال عنه أبو حامد الأسفراييني[٤]: لو سافر الرجل إلى الصين حتى يحصل له تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيراً عليه[٥].

وما من شك أن هذا التفسير يعد من أمهات كتب التفسير بالمأثور والرأي المبني على القواعد والأصول، وهو أمر مشاهد لكل مطّلع عليه، قارئ فيه، متابع له، فمصنفه إمام مجتهد صاحب مذهب فقهي، وهو من أئمة الحديث، ومن رجال التاريخ واللغة، جمع علوماً كثيرة فوعاها، وتفسيره بين أيدينا يشهد على تفوقه.

---

(١) انظر: طبقات المفسرين للسيوطي: ٨٢.

(٢) هو محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري الشافعي، شيخ الإسلام، وإمام الأئمة، صاحب التصانيف، فقيه مجتهد عالم بالحديث، له الصحيح، توفي (٣١١هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٤/ ٣٦٥- والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي: ٣/ ٢٠٩.

(٣) انظر: معجم الأدباء لياقوت: ١٨/ ٤٣- والتفسير والمفسرون للذهبي: ١/ ٢٠٨.

(٤) هو أحمد بن محمد بن أبي طاهر محمد الإسفراييني، شيخ الشافعية ببغداد، ثقة، قيل: إنه كان من أنظر الفقهاء، توفي (٤٠٦هـ). انظر: تاريخ بغداد للخطيب: ٤/ ٣٦٨- وسير أعلام النبلاء للذهبي: ١٧/ ١٩٣.

(٥) انظر: معجم الأدباء لياقوت: ١٨/ ٤٢- ومعرفة القرآء الكبار للذهبي: ١/ ٢٦٦.

وأود الإشارة هنا إلى أن المصنف يعد رائد الطريقة والمنهج الذي سار عليهما في تفسيره، وتبقى للريادة والأولوية مآخذها ونواقصها، وفي مثل هذا يقول ابن الأثير[١]: كل مبتدئ لشيء لم يُسبق إليه، ومبتدع لأمر لم يتقدم فيه عليه فإنه يكون قليلاً ثم يكثر، وصغيراً ثم يكبر[٢]؛ ولهذا فإن القارئ المتفحّص المتعمِّق لعلم التفسير قد يجد على هذا التفسير من الملحوظات والمآخذ التي ربما استدركها كثير ممن جاء بعد ابن جرير، ومن تلك المآخذ التطويل بإيراد الطرق العديدة لإفادة معنى لغوي واحد. ومجانبته الصواب في بعض الآراء، كما أنه لم يخل من ذكر الإسرائيليات التي ينبغي أن يخلو منها كتب التفسير، إذ مظان ما سكت الشرع عنه منها، كتب القصص والأساطير والحكايات[٣].

علمنا من خلال سيرة ابن جرير السابقة اهتمامه العظيم بالمأثور من الأحاديث والآثار، وكيف أن العلماء يعدون تفسيره أفضل تفسير بالمأثور،

---

(١) هو أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، المعروف بابن الأثير، عمل كاتباً وعرف عنه الذكاء، صنف كثيراً من ذلك المثل السائر، والنهاية في غريب الحديث. توفي (٦٠٦هـ) انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان: ٤/ ١٤١- وسير أعلام النبلاء للذهبي: ٢١/ ٤٨٨.

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: ١/ ٥.

(٣) انظر: تاريخ التفسير للقيسي: ١٤٧ ومثاله: إيراده سبعة عشر طريقاً لإفادة أن الكأس الدهاق هي المتابعة، وهو معروف عند أهل اللغة، ولا يتعلق به حكم شرعي من حيث الحل والحرمة.

وأصحه، وما ذلك إلا لما حواه من الآثار التي رواها المصنف بسنده، وتحرّى صحتها بطريقته، وقد كان لهذا الكم الهائل الأثر الواضح في توسع ابن جرير في المقدمات التي قدمها بين يدي تفسيره، حيث وجد منها منطلقاً فسيحاً رحباً، للحديث عن علوم القرآن التي يرى المصنف ضرورة إلمام المفسر وقارئ التفسير بها، قبل الخوض في الطوال من المصنفات، وقد أضاف ابن جرير إلى ذخيرته من المأثور ما توصل إليه بإعمال الفكر، وإدامة النظر في النصوص، حتى فاق في مقدماته من جاء بعده، بل عُدَّ مرجعاً يستند إليه المفسرون والمصنفون في علوم القرآن، خاصة في جانب الرواية، وعرض الآراء.

وكان لجهوده أثر بيِّنٌ واضح في خدمة هذا الفن -أقصد فن المقدمات- حتى نما وترعرع وضبطت مسائله، واتسعت مباحثه وعلومه.

وعدد هذه المقدمات التي قدمها المصنف بين يدي تفسيره بلغت عشر مقدمات، حسب تقسيم المصنف، يطول في بعضها نَفَس المؤلف طولاً ملحوظاً، في حين يقتصر في البعض الآخر على ذكر روايات بعدد، يرويها في المعنى الذي هو بصدده.

وقد سودت المقدمات مائة وست صفحات من الطبعة التي اعتمدتها أصلاً في هذه الدراسة، وهي الطبعة التي نحسبها خالية من الأخطاء بعناية الأخوين الفاضلين محمود وأحمد محمد شاكر.

وبالنظر في المقدمات العشر ودراستها بإمعان يلحظ المرء أن ابن جرير

قد أدمج موضوعات، وأدخلها تحت مسمًّى واحد، ربما لوحدة الموضوع، إلا أن من حقها أن تفرد، فهي موضوعات مستقلة، قائمة بذاتها، لها آثارها ورواياتها، ولها ضوابطها المستقلة ما دمنا قد ارتضينا فصل أو (نزع) علوم القرآن من علم الحديث والرواية وهو أمر تفهَّمه المتأخرون وارتضوه، وساروا عليه كالسيوطي وابن عقيلة وجل المعاصرين.

ومهما يكن الأمر؛ فإن هذه المقدمات تثبت بحق بلاغة المصنف الأدبية، وعظيم ما حصله من علم اللغة والبلاغة والأدب، الأمر الذي مكَّنه من صياغة هذه العلوم بأسلوب بليغ، وتقديمها قطعة أدبية لا يملّ القارئ النظر فيها، تجرُّه كل عبارة للتي تليها، وإن كانت بعض عباراته تعصى بين حين وآخر على القارئ فيلتجئ إلى ما حشاه المحقق من بيان معاني الكلمات وتوضيح العبارات، ليفهم النص على مراد المصنف.

هذا وقد طبعت المقدمات مع التفسير طبعات مختلفة في أقطار عديدة، نذكر منها:

١) الطبعة الأميرية بولاق، مصر، الطبعة الأولى عام ١٣٢٣ هـ.

٢) طبعة دار المعارف، مصر، ستة عشر مجلداً فقط، وهي بتحقيق الشيخين محمود وأحمد محمد شاكر، صدرت الطبعة الأولى منها عام ١٣٧٤ هـ.

٣) طبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعات من الأولى إلى الثالثة عام ١٣٨٨ هـ.

٤) طبعة دار المعرفة، بيروت ١٣٩٨ هـ، مصورة عن الطبعة الأميرية الأولى، وصورت بالأوفست إلى الطبعة الرابعة عام ١٤٠٠ هـ.

ثالثاً: عرض موضوعات المقدمة:

استهل الطبري تفسيره ومقدماته التي قدمها بين يدي تفسيره بخطبة بليغة، ظهر فيها تعمقه في العلوم العربية، والنكات البلاغية، فبعد أن أثنى على اللّه بما هو أهله، وشكره على فضله، ونزّهه عن الند والمثل، تحدث عن فضائل الأنبياء عامة وكيف أن اللّه سبحانه قد أبانهم عن سائر خلقه بأن أيدهم بالحجج البالغة، والآي المعجزة، ثم خصَّ نبينا ﷺ فتحدث عن فضله وفضائله، ودعوته ورسالته، وما خص أمته وشرَّفهم به على سائر الأمم من المنازل الرفيعة.

وتكلم عن معجزة الرسول الكبرى، وكيف أنه تقدست أسماؤه جعله دليلاً على حقيقة نبوته ﷺ.

بعدها سأل اللّه سبحانه التوفيق لإصابة القول، وشكره على ما أنعم به عليه من حفظ كتابه والعلم بحدوده، ليؤكد أن أحق ما صرفت إليه الهمم هو كتاب اللّه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفة تنزيل من حكيم حميد.

وذكر أنه مقبل على شرح كتاب اللّه وتأويله وبيان معانيه، موضحاً منهجه وطريقته. ليبدأ بالمقدمات، وهي:

١) القول في البيان عن اتفاق معاني آي القرآن، ومعاني منطق من نزل بلسانه القرآن من وجه البيان، والدلالة على أن ذلك من اللّه تعالى ذكره هو الحكمة البالغة مع الإبانة عن فضل المعنى الذي به باينَ القرآن سائرَ الكلام.

أراد ابن جرير أن يؤكد بادئ ذي بدء أن من لم يعان رياضة العلوم العربية، ولم يعرف تصاريف وجودة هذا اللسان يقف عاجزاً عن فهم معاني كتاب اللّه.

فذكر أن من أعظم نعم اللّه على خلقه -ونعمه لا تحصى- ما منحهم من فَضْل البيان حتى صاروا عن ضمائر صدورهم يبينون، وبه إياه يوحدون ويسبحون ويقدسون، وجعلهم في هذا الفهم طبقات، ورفع بعضهم فوق بعض درجات، وجعل أعلى منازل البيان درجة أبلغُه في حاجة المُبين عن نفسه، وأبينُه عن مراد قائله، وأقربُه من فهم سامعه.

وأشار إلى أن ما تجاوز هذا المقدار، وارتفع عن وسع الأنام كان حجة على من كانوا رؤساء صناعة الخطب والبلاغة، وقيل الشعر والفصاحة، والسجع والكهانة، وتدرج ابن جرير في القول على هذا المنوال ليثبت رسالة الرسول ﷺ، وليبين أن القرآن هو المعجزة الكبرى، وليقرَّ أصلاً معلوماً هو الإعجاز البياني، وكيف أن القوم كانوا عن الإتيان بمثل بعضه عَجَزَةً، وعن القدرة عليه نَقَصَة، فأقروا بالعجز، وأذعنوا بالتصديق.

بعدها سفَّه المصنف من تجاهل وتعامى، واستكبر وتعاشى، فحاول مجاراة النبي ﷺ فيما أتى به من الحق المبين، فقال من الحماقات المشبهة

دعواه الكاذبة.

وليؤكد المصنف أن معاني كتاب اللّه المنزل على نبينا محمد ﷺ هي لمعاني كلام العرب موافقة، وظاهره لظاهر كلامها ملائمة، ولأساليبه في أساليبها نظير ومثيل وإن كان مباينة كتاب اللّه بالفضل والفضيلة ظاهر أثبت منطقياً أنه تعالى يتعالى أن يخاطب خطاباً أو يرسل رسالة لا توجب فائدة لمن خوطب أو أرسلت إليه، فالمخاطب والمُرْسَلُ إليه إن لم يفهم ما خوطب به أو أرسل إليه يكون حاله قبل الخطاب وبعد مجيئه سواء، إذ لم يفده الخطاب والرسالة شيئاً، ولهذا كان كل كتاب أنزل فإنما هو بلسان قوم من أنزل عليه، وعليه فالقرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين.

٢) القول في البيان عن الأحرف التي اتفقت فيها ألفاظ العرب وألفاظ غيرها من بعض أجناس الأمم.

ما أقره الطبري في الباب السابق من تنزيه اللّه جل ذكره مخاطبة أحد من خلقه إلا بما يفهمه وهو أمر مسلم لا ينازع فيه بصير يثبت عربية جميع ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه، ولأنه ورد في بعض الآثار ما يوحي بأعجمية شيء من ألفاظ القرآن الكريم، وأنه بلغات أقوام وأجناس غير العرب وهو أمر مشكل يفيد ظاهره أن في القرآن من غير لسان العرب خصَّ المصنف الموضوع بحديث مستقل لتجلية الأمر، وتوضيح المراد.

فبعد أن عرض جملة من تلك الآثار المشكلة في ظاهرها، والتي لم يكثر منها إيماناً منه أن في ذكرها إطالة للكتاب دونما فائدة، بيَّن أن ما ورد في هذه

الآثار لا تخالف ما انتهى إليه في الباب السابق، ولا تخرج عن معناه، لكون ما جاء فيها لم تنفِ عربية تلك الكلمات، بل غاية ما دلت عليه هو وجود إتفاق بين الأجناس في معنى هذه الألفاظ، وهو أمر يقره المصنف، وعلى ذلك سرد احتمالات وأوجه ما قد يُبين أصول تلك الألفاظ، وانتهى إلى أن من يدعي أحقيته بأصل هذه الألفاظ، وأنه مصدرها ومخرجها إلى الأجناس الأخرى كان مستجهلاً ومدع أمراً لا يوصل إلى حقيقة صحته إلا بخبر يوجب العلم، ويزيل الشك، وهو أمر متعذر.

ويرى المصنف أن القول هو أن تضاف هذه الألفاظ إلى كل جنس من الأجناس المشتركة فيها، وكونها موجودة في لغة العرب لا تعني بالضرورة عدم وجودها في لغات أخرى، وضرب لذلك مثالاً، فقال: إن الدرهم والدينار والدواة والقلم، كلمات اتفقت ألسن العرب والفرس فيها بالألفاظ الواحدة، والمعنى الواحد.

بعدها رد المصنف على من يدعي استحالة هذا الاجتماع في المنطق قياساً على استحالة ذلك في الأنساب فأفسد القياس واعوجاج المنطق الذي قالوا به. لينتقل لعرض فهمه من قولهم: إن في القرآن من كل لسان، أي أنّ فيه من كل لسان اتفق فيه لفظ العرب وغيرها من الأمم التي تنطق به، لكون الاعتقاد بأن بعض القرآن فارسي لا عربي، أو نبطي لا عربي... إلخ، فيه نفي عن بعض القرآن أنه عربي، واللّه يصف القرآن كله بأنه عربي ﴿قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾ [يوسف: ٢] فالعربية صفة شاملة لا يجوز لأحد أن يخصص

شمولها على بعض القرآن دون بعض. ولكون البعض يقرون بإمكانية الاشتراك غير أنهم يدَّعون أن الأصل لجنس دون آخر، وأن الآخر إنما نطق بها، رد المصنف هذا الادعاء وأبطل هذا الزعم بإلزام المدعي بدليله.

٣) القول في اللغة التي نزل بها القرآن من لغات العرب:

ويُعدُّ هذا الموضوع نموذجاً للموضوعات التي طال فيها نفَسُ المصنف، فقد شغل أكثر من ثمان وأربعين صفحة من مجموع صفحات مقدمته البالغ مائة وست صفحات.

وسبق أن أشرت بأن ابن جرير إذا أراد إثبات أمر أو أراد نفيه تدرج في القول لتحقيق المراد بأيسر السبل وعلى أحكم الوجوه، وجاء هذا التدرج في المقدمات التي ذكرها بين يدي تفسيره، والتي سميتها أنواعاً اقتداءً بأصحاب الموسوعات في علوم القرآن، فبعد أن أثبت المصنف في النوع السابق عربية كل ما جاء في كتاب اللّه، ولكون ألسنة العرب كثيرة بكثرة قبائلها وأحيائها، أراد أن يبين في هذا النوع اللسان الذي نزل عليه القرآن من تلك الألسنة، فسرد الأخبار التي تظاهرت عنه ﷺ في اللغات التي نزل بها القرآن، والتي بلغت ستة وستون أثراً، رواها كلها بسنده، بينتْ بمجموعها نزول القرآن على سبع لغات، والاختلاف في قراءة الصحابة، وما أقرّ الرسول ﷺ منها، وما غضب لأجلها، واختلاف السلف في تفسير هذه اللغات، والأوجه والأحرف، ليؤكد أن القرآن نزل على بعض ألسن العرب دون الجميع، فألسنتها أكثر من سبعة.

عقب ذلك انتقل المصنف للتفريق بين اللغات السبع أو (الأحرف السبعة) والأبواب السبعة، وبه ردَّ على من تأول اللغات بالأبواب، وناقشهم في أدلتهم، وأكد نقلاً وعقلاً صحة ما تبناه، وخطأ ما ذهبوا إليه.

ولما ترجح لديه اقتناع القارئ بما ذهب إليه تساءل ليزيل احتمال شكٍّ يَعْلَق ببعض الأذهان إيجاد لفظة في القرآن تقرأ بسبع لغات، فقال نافياً ذلك: إنا لم نَدّعِ أن ذلك موجود اليوم.... ولم تنسخ فترفع، ولا ضيعتها الأمة وهي مأمورة بحفظها، ولكن الأمة أمرت بحفظ القرآن وخُيِّرت في قراءته وحفظه بأي تلك الأحرف السبعة شاءت.... فرأت قراءته بحرف، ورَفْضَ القراءة بالأحرف السبعة الباقية.

أتبع ذلك بيان العلة التي أوجبت الثبات على حرف واحد دون سائر الحروف، واستهل ذلك بذكر جملة من الآثار مشيراً إلى كثرتها في هذا المعنى، وموضحاً أن عثمان بن عفان ﷺ هو الذي جمع الأمة على حرف واحد إشفاقاً عليهم ورأفة بهم لما رأى التكذيب ببعض الحروف رغم حداثة عهدهم بنزول القرآن، فاستوثقت له الأمة على ذلك بالطاعة، ورأت في فعله الرشد والهداية، وتركت القراءة بالأحرف الستة.

ولهذا يرى الطبري أنه لا سبيل لأحد القراءة بها لأنها درست من الأمة معرفتها، وتعفَّت آثارها، وتتابع المسلمون على رفض القراءة بها من غير جحود منها.

وليسوغ المصنف عمل سيدنا عثمان ﷺ في إلغاء الأحرف الستة على

اعتقاده وقبول الأمة ذلك منه، وتركهم قراءة أقرأهموها رسول اللّه ﷺ وأمرهم بقراءتها، بين أن الأمر كان أمر إباحة ورخصة، لا أمر إيجاب وفرض، وبين دليل التخيير.

وقبل أن يختم حديثه ببيان الألسن السبعة التي نزل عليها القرآن، وتحديدها أشار إلى ما أشكل على بعض العامة حين ظنوا أن الأحرف السبعة هي القراءات السبع، فنفى الإشكال وأبطل الظن، وأكد أنه بمعزل عن قول الرسول ﷺ: «أُمرت أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف».

وجاءت الخاتمة ليقرر المصنف أنه لا فائدة اليوم من معرفة تلك الأحرف لكونها لا يقرأ بها أحد، وليسرد بعض الأخبار الموضحة لها من غير أن يرجح بينها.

٤) معنى قول الرسول ﷺ : «أنزل القرآن» من «سبعة أبواب الجنة» وذكر الأخبار الواردة في ذلك:

حين أكد المصنف في النوع السابق أن اللغات السبعة التي نزل بها القرآن، هي غير الأبواب السبعة التي نزل منها القرآن، وبين هناك المراد بالأحرف السبعة، خصَّ هذا الباب لبيان المراد بالأبواب السبعة.

فاستهل الحديث بذكر اختلاف النقلة في ألفاظ الخبر الوارد عن رسول اللّه ﷺ الدال على نزول القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف، وهي ألفاظ متقاربة المعنى، وأشار في ثنايا حديثه إلى أن نزول

القرآن على النحو المذكور خاصية خصَّ اللّه بها أمة محمد ﷺ دون سائر الأمم.

وبيّن الفرق بين النزول على سبعة أحرف والنزول من سبعة أبواب، وقال: إن الكتب السابقة كانت تنزل على حرف واحد بلسان واحد، متى حُوِّل إلى غير اللسان الذي أنزل عليه كان ذلك ترجمة وتفسيراً لا تلاوة، أما القرآن الكريم فبأي السبعة تلاه التالي كان تالياً للقرآن، لا مترجماً ولا مفسراً حتى يحوله عن تلك الألسن. وهي معنى نزوله على سبعة أحرف، أما من سبعة أبواب فلكون الكتب السابقة كانت تنزل خالية من الحدود والأحكام، والحلال والحرام[1]، وكانت تنزل ببعض المعاني السبعة التي يحوي جميعها كتابنا الذي خص اللّه به نبينا ﷺ وأمته وهي: الأمر، والزجر، والحلال، والحرام، والمحكم، والمتشابه، والأمثال.

وبذلك أوضح أنَّ من سبقنا من الأمم كانوا يتعبدون اللّه بهذا الوجه، ويستوجبون منه القرب، أما أمة محمد ﷺ التي أنزل كتابها من سبعة أبواب فإنهم يتقربون إلى اللّه بالأوجه السبعة، وبه يأملون إدراك الفوز بالجنة، وبيَّن كيفية حصول ذلك.

ولأنه ورد في بعض ألفاظ الخبر أن لكل آية حد ومطلع، وظهر

---

(١) ذكر المصنف مثال ذلك زبور داود عليه السلام، وقال: إنه تذكير ومواعظ، وإنجيل عيسى عليه السلام كان تمجيداً ومحامداً وحضاً على الصفح والإعراض.

وبطن، بيّن المصنف المراد بذلك والمقصود منه، وبذلك أنهى المبحث.

٥ – القول في الوجوه التي من قبلها يوصل إلى معرفة تأويل القرآن:

قدم المصنف لهذا النوع خلاصة ما توصل إليه في الأنواع السابقة، من عربية القرآن كله، ونزوله بألسن العرب، وأنها تقرأ اليوم ببعض الألسن دون جميعها، ثم تحدث عن الموضوع الذي هو بصدده، فبين أن أقسام التفسير – وهو ما عبر عنه بالوجوه التي من قِبَلها يصل إلى معرفة تأويل القرآن – فاستهلّه بسرد الآيات الدالات على أن تبيان الذكر هو من خاصيات الرسول ﷺ، وأن هذه الوظيفة – وظيفة البيان – هو فيما أمره اللّه أن يبينه، وأن من الآيات ما هو محكم، وآخر متشابه لا يعلم تأويله إلا اللّه، وبه وضّح أن التفسير ثلاثة أقسام:

١) قسم لا يوصل إلى تأويله إلا ببيان رسول اللّه ﷺ، إما بنص منه عليه، أو بدلالة قد نصبها دالة أُمته على تأويله، وهو ما لا يجوز لأحد القول فيه.

٢) قسم لا يعلم تأويله إلا اللّه، استأثر سبحانه بعلمه على خلقه.

٣) قسم ثالث يعلم تأويله كل ذي علم باللسان الذي نزل به القرآن، وهذا يختلف فيه الناس ويتفاوتون حسب صلتهم بلغة القرآن.

وضرب المصنف الأمثلة على ما ذكره وختم المبحث ببيان ما جاء عن ابن عباس – رضي اللّه عنهما – في بعض الروايات من كون الأقسام

أربعة، وأن الرابع هو ما لا يعذر أحد بجهالته، فأوضح أن ما ذكره لا يعد وجهاً يوصل إلى معرفة تأويله، وإنما هو إخبار عن ابن عباس بأن تأويله لا يجوز لأحد الجهل به.

وما ذكره المصنف تخريج جيد،وفهم مقبول لمقولة ابن عباس السابقة.

٦- ذكر بعض الأخبار التي رويت بالنهي عن القول في تأويل القرآن بالرأي:

لما كان من تأويل القرآن ما لا يدرك علمه إلا بنص بيان رسول اللّه ﷺ، أو نصبه ﷺ الدلالة عليه - وهو الأمر الذي أقره المصنف في الباب السابق - عمد المصنف في هذا النوع إلى سرد جملة من الآثار المحذِّرة من القول في القرآن بغير علم، وأكد أن وعيداً ورد في حق من يقول في القرآن برأيه بعد أن ثبت قول الرسول ﷺ فيه،وإن أصاب القائل الحق في مقولته، وعلل إصابة القول من مثله بأنها إصابة خارص ظان ليس موقن، والظان قائل على اللّه ما لم يعلم.

وأوضح أن ما ذهب إليه هو مراده ﷺ من قوله: #« من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ ». وخطأه هو فعله من القول على اللّه بغير علم.

٧ - ذكر الأخبار التي رويت في الحض على العلم بتفسير القرآن ومن كان يفسره من الصحابة:

انتهى بنا المصنف في النوع السابق إلى تأثيم من تقوّل على اللّه، فقال

في القرآن برأيه بغير علم ولم يتتبع الوارد عن رسول اللّه ﷺ، ولأنه ﷺ لم يفسر القرآن كله، بل «فسر آياً بعدد علَّمه إياهنَّ جبريل»، كما ورد ذلك عن السيدة عائشة - رضي اللّه عنها - ولكون المصنف ذكر من أقسام التفسير ما يعلمه كل ذي علم باللسان العربي، فقد كان من اللزوم أن يزيل المصنف ما قد يحصل من التباس وتعارض، ولهذا خص هذا النوع لذكر الأخبار التي رويت في الحض على التفسير وإعمال الفكر لفهم مراد اللّه العظيم، وذكر المبرزين من الصحابة في هذا الشأن.

بدأه بذكر الأخبار المروية، وأنهاه بفساد قول من أنكر تفسير المفسرين فيما لم يحجب عن الخلق تأويله، وبين البداية والنهاية أكد أن معرفة تأويل آي القرآن واجبة على الأمة، فقد حثَّ سبحانه على ذلك، وأمر عباده بالاتعاظ بأمثال القرآن والاعتبار بها، والاتعاظ والاعتبار لا يكون إلا عن طريق معرفة تأويل ما لم يحجب عنهم، لأنه محال أن يقال لمن لا يفهم مايقال له ولايعقله: اعتبر بما قيل لك.

وإذا كان ذلك كذلك عُلِمَ أنه سبحانه لم يأمر عباده بتدبر كلامه، ويحثهم على تفهم معانيه إلا وهم بما يدلهم عليه عالمون، ومنه صح أنهم بتأويل ما لم يحجب عنهم علمه من آيه عارفون.

وبهذا جوَّز المصنف التفسير بالرأي على ما بينه، ولأنه تبقى بعض الآثار التي تفيد ظاهرها خلاف ما أقره المصنف هنا، خص لذلك النوع التالي، وهو:

٨ - ذكر الأخبار التي غلط في تأويلها منكرو القول في القرآن:

بعد أن سوغ المصنف التفسير بالرأي المبني على القواعد، وأثبت ذلك نقلاً، وبين ضرورته عقلاً، انتقل ليزيل الالتباس، ويوضح تلك الآثار التي تدل على إحجام ثلة من الصحابة والتابعين - رضي اللّه عنهم - عن القول في القرآن وتفسيره بالرأي، وتؤكد وقوفهم عند المأثور عن رسول اللّه ﷺ، فوجَّه الآثار، وخرَّج الأقوال، وبين المراد منها، وعلل أن إحجام من أحجم عن خوض هذا الميدان إنما هو إحجام حذر أن لا يبلغ أداء ما كُلِّف من إصابة صوابِ القول فيه، لا على أن تأويل ذلك محجوب عن علماء الأمة، غير موجود بين أظهرهم، تماماً كإحجام بعض التابعين عن الفُتيا في النوازل والحوادث، مع إقراره بأن اللّه جل ثناؤه لم يقبض نبيه إليه إلا بعد إكمال الدين لعباده، وعلمه بأن للّه في كل نازلة وحادثة حُكماً موجوداً بنصٍّ أو دلالة.

وهكذا استند المصنف في بيانه هذا إلى المنقول من الأثر، والمعقول من صريح الرأي.

٩ - ذكر الأخبار عن بعض السلف فيمن كان من قدماء المفسرين محموداً علمه بالتفسير، ومن كان منهم مذموماً علمه به:

عُرف بالتفسير من المتقدمين صنفان:

صنف نقل عنه التفسير المحمود المقبول المعتمد على القواعد

والأصول، والصادر عن علم ودراية، مثل ابن عباس ومجاهد.

وصنف أقحم نفسه هذا الميدان وليس لـه فيه ناقة ولا جمل، فهذر وتقوَّل حتى نقل عنه المذموم المستنكر، مثل باذام[١] والسدي.

ذكر ابن جرير -رحمه اللّه - في هذا النوع نتفاً من أخبار الصنفين المذكورين، روى الأخبار بإسناده، وأكد ما سبق أن بيَّنه من وجوه تأويل القرآن، موضحاً أن أحق الناس بالتفسير وإصابة الحق أوضحهم حجة فيما تأوَّل وفسَّر، مبيناً أن وضوح الحجة يكون من جهتين:

الأولى: معرفته بالثابت عنه ﷺ من أي جهة كان ثبوته[٢].

الثانية: معرفته باللسان من جهة علمه بالشواهد من الأشعار، ومنطق العرب ولغاتهم المعروفة.

مؤكداً أن من كانت هذه صفته كان تفسيره معتمداً لا يخرج عن تفسير الصحابة والتابعين.

---

(١) هو باذام، وقيل: باذان، أبو صالح مولى أم هانئ بنت أبي طالب ،قال ابن معين: ليس به بأس. وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به. وقال النسائي: ليس بثقة. ذكره البخاري فيمن توفي بين سنة (٩٠-١٠٠ هـ). انظر: تهذيب الكمال للمزي: ٦/٤ - وتاريخ البخاري الكبير: ٢/ ١/ ٤٤٤.

(٢) كالنقل المستفيض، والنقل عن العدول والأثبات، أو من جهة الدلالة المنصوبة على صحته.

١٠ - القول في تأويل أسماء القرآن وسوره وآيه:

أورد المصنف في هذا النوع الأسماء التي سمى المنزّل سبحانه بها تنزيله، فذكر « الْقُرْآنٌ » و « الْفُرْقَان » و « الْكِتَاب » و « الذِّكْرُ » ، كما ذكر لكل تسمية دليلها من كتاب اللّه، ووجه التسمية من كلام العرب، والخلاف في ذلك.

انتقل بعدها لعرض أسماء سور القرآن التي سماها بها رسول اللّه ﷺ، وعرض الآثار الواردة فى ذلك، وتوجيه تلك الأسماء ومعانيها في كلام العرب، كتسميته ﷺ بعض السور بالمفصل والمئين والسبع المثاني وغيرها.

وثلّث الحديث ببيان معنى السورة في اللغة، ثم أصل الاشتقاق، والمعنى على كل أصل، مدعماً قوله بكلام العرب وأشعارها.

وأخيراً بيَّن معنى الآية في اللغة وما تحمله من وجوه.

وبهذا الموضوغ ختم ابن جرير مقدماته، ليبدأ بمقدمات سورة الفاتحة، أول سورة في الترتيب العثماني.

رابعاً- منهج ابن جرير في مقدمته:

أوضح ابن جرير السمات الأساسية لمنهجه حين ذكر في مقدمته أنه مقبل على إنشاء كتاب في شرح القرآن وتأويله،وبيان معانيه، مبيناً أن منهجه فيه هو بيان ما اتفق عليه العلماء وما اختلفوا فيه، وذكر أدلة كل

مذهب مع بيان الصحيح منه والسقيم، بعبارة موجزة، واختصار غير مخلّ.

وهو نهج قويم لو التزمه المصنف وسار عليه باطراد، غير أن المتابع يلحظ أن المؤلف يخلُّ بنهجه من حين لآخر، وإن كان هذا الإخلال في التفسير أكثر منه في المقدمة، التي التزم فيها إلى حد كبير بما ذكره، ولعل الإطالة في ذكر طرق بعض الروايات في أحايين كثيرة، وعدم بيان درجة كثير من الآثار خير شاهد على هذا الأمر، ولست أزعم وحدة المنهج بين المقدمة وصلب التفسير إلا في كليات المنهج، أما في الجزئيات فالفرق والتباين بين طبيعة الموضوعين يستدعي الاختلاف في نهج المعالجة.

هذا وقد جاءت مقدمة الطبري بمقدماته العشر، كمقدمة واحدة، وهو أمر أراده المصنف، فقد ربط كل مقدمة بالتي قبلها،ووصلها بالتي تليها، وعلى المتقدم بنى المتأخر[1]،وهو نهج اتبعه ابن جرير - يرحمه اللّه- حتى ضمن النوع الواحد، فإن انتصر لفكرةٍ أو رأيٍ، سعى لإثبات ذلك منطقياً، ينطلق من أمر هو من البدهيات، ثم يتدرج في الجزئيات، كل جزئية تكون نتيجة للتي قبلها، حتى إذا اكتمل العقد صرَّح المصنف بمراده، وأظهر ما أضمره ويريد لإثباته، ويمكن ضرب المثل على هذا المنهج بالمقدمة الأولى.

فلكي يثبت المصنف أن القرآن الكريم نزل على أساليب كلام العرب ومعانيها، بيَّن أولاً أن من أعظم نعم اللّه على عباده ما منحهم من فضل

---

(١) انظر امثلة ذلك في الصفحات: ١٣-٢١-٧٣ من المقدمة.

البيان الذي به يعبرون عن ما في صدروهم، وأنهم في هذا البيان متفاوتون، ما بين خطيب مُسهبٍ وعَيٍّ لا يُبين، وأن أعلى مراتب البيان أَبْيَنُه عن مراد قائله،وأبلغه عن حاجة المبين عن نفسه، وأقربه إلى فهم سامعه، فإن تجاوز هذا المقدار، وعجز أن يأتي بمثله العباد كان حجة وعلماً للرسول.

وعلى ذلك بيَّن أن القرآن هو في أعلى درجات البيان لأنه تعالى تحدى به قوماً كانوا رؤساء الفصاحة، وقيل: الشعر والسجع والكهانة، فأقروا بالعجز وأذعنوا بالتصديق، فكان فضل كلام اللّه على كلام غيره كفضله جلَّ وعلا على عباده.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن من خاطب غيره بما لا يفهمه لم يكن مبيناً عن نفسه، وعليه بنى المصنف استحالة مخاطبة اللّه جلا وعلا أحداً، من خلقه بما لا يفهم، أو إرساله رسولاً لقوم لا يفهمون خطابه، إذ إن ذلك لا يوجب فائدة، وهو أمر يستحيل على اللّه سبحانه، وعلى ذلك فكل رسول أرسل بلسان قومه، وكل كتاب أنزل بلسان من نزل عليه، وعليه فالقرآن الكريم نزل بلسان محمد ﷺ، فَبيِّنٌ أن القرآن عربي.

ويستوجب ذلك أن تكون معاني كتاب اللّه تعالى المنزّل على محمد ﷺ لمعاني كلام العرب موافقة،وظاهره لظاهر كلامها ملائمٌ.(١)

ولطول باع ابن جرير، وتمكنه في فنون العلم المتنوعة، فإن كل ما يمليه

---

(١) انظر الصفحات: ٨-١٢ من المقدمة.

يؤيده بالأدلة والحجج، فيستشهد بالآيات والأحاديث والآثار واللغة والشعر، فإن كانت طويلة أو عديدة أحال القارئ إلى موطنها من صلب التفسير، أو اعتذر عن ذكرها خشية الإطالة والسآمة، مصرحاً بذلك من حين لآخر.(١)

يبدأ ابن جرير حديثه عن الموضوع الذي هو بصدد بيان القول فيه بذكر الروايات والآثار، ثم يعقب بالمناقشات وبيان الآراء والاتجاهات، ثم الرد على المخالفين، والتصريح برأيه.(٢)

ولعل أظهر سمة لمنهج ابن جرير في مقدمته هو ما عمد إليه في عرض الموضوعات والمناقشات بأسلوب علمي هادئ يكفي القارئ مؤنة السؤال والاستفسار، فللوصول إلى بيان الفكرة التي يريد إثباتها، يطرح المصنف سؤالاً على لسان قائل، ثم يجيب عنه، أو يورد معضلة أو إشكالاً يعقبه بالتوضيح المدعوم بالأدلة، وهذا الفن هو ما يسمى بفن (الفنقلة)(٣)، وهو أسلوب جيد يربط القارئ بالنص ويشده إليه، ويبعد عنه السآمة والملل، يلجأ إليه كثيرون في حل المسائل العويصة والطويلة المملة.(٤)

---

(١) انظر مثال ذلك الصفحات: ١٤-١٥.

(٢) انظر مثال ذلك الصفحات: ١٦-١٧-١٩-٥٧.

(٣) أي المراد: إن قيل:..قلت:..

(٤) انظر الصفحات: ١٥-١٦-٢١-٤٧-٥٥-٥٩.

ومن منهج ابن جرير يرحمه اللّه يضيف إلى أدلته النقلية أدلة عقلية قوية، فيجمع بذلك بين العقل والنقل في مناقشاته، وهومنهج قويم يزيد القارئ قناعة، ويلزم على المصنفين نهجه إن كان الموضوع محلاً لذلك، وإلا بقي في نفس القارئ ما قد يضعف الاقتناع، والأمثلة على هذا المنهج عديدة[١].

والمستغرب في منهج المصنف أنه لا يعيِّن القائل عند ذكره للأقوال، ولا ينسب الآراء أثناء مناقشاته،بل يكتفي بقوله: فإن قال لنا قائل. أو بقوله: قال بعض من خفت معرفته.أو قوله: قال جماعة. إلى غير ذلك من العبارات التي لا تبين القائل.[٢]

وإذا ارتضينا بعدم تعيين المصنف للقائل عند إيراد الإشكالات، وقلنا: إنه أسلوب كتابي يقصد منه التوضيح بعد إيراد اعتراض يورده الكاتب على نفسه، لعلمه أن ذلك قد يورد في ذهن القارئ، فإننا لا نرتضي ذلك للمصنف في الحالات التي ينبغي بل يتعين فيها تعيين القائل، فمن حق أولئك أن يُعَيَّنوا ويُذْكَروا، حتى يعرفوا وحتى يوثق القارئ بالمعلومة ويطمئن إليها، ويتأكد منها، ثم إن من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله.هذا واللّه أعلم.

---

(١) انظر الصفحات: ٤٨-٤٩-٥٠-٨٢-٨٣.

(٢) انظر الصفحات: ٤٧-٦٤-٦٥-١٠٣.

خامساً: مصادر المؤلف:

لم يذكر الطبري في مقدمته التي بلغت مائة وست صفحات مصدراً واحداً من مصادره، ولا صرَّح باسم قائل خلا أولئك الذين يذكرهم في أسانيد الروايات، وكان من حق القارئ على المصنف أن يذكر مصدر معلوماته، وأن يحيل القارئ إلى مظان تلك المعلومات، بأن يذكر بعض من ألف في الموضوع الذي يريد طرقه ليرشد من أراد التوسع إلى منابعه، وهو ما تفطن له كثير من المصنفين، من أقران المصنف ومن المتأخرين، فصنيعه هذا إذاً ليس عائداً إلى منهجية التأليف زمن المصنف كما يرى بعض الباحثين.

سادساً: أهم مزايا مقدمة ابن جرير:

أومأت قبل أن الريادة في أي فن من الفنون لا بد أن تترك جوانب نقص، يأتي المتأخر فيكمل ويضيف ويتمم حتى يستوي على سوقه، وتبقى المزية والفضل للرائد الذي بذر البذرة، ووضع الأساس، وعلى هذا كان من أهم مزايا مقدمة ابن جرير هو الريادة بوضع مقدمة تضم علوماً يحتاج إليها المفسر، كما يحتاج إليها القارئ للتفسير، فلم يسبقه فيما أعلم في هذا المجال أحد، إلى جانب مزايا أخرى امتاز بها المصنف:

١) حسن الترتيب والتبويب، حيث تدرَّج المصنف في ذكر العلوم بأن بنى كل علم على الذي قبله.

٢) احتكام المصنف إلى الرواية أصلاً وأساساً في تصويب الآراء.

٣) إيراد المصنف للإشكالات التي قد ترد على المسألة بشكل تفصيلي، والرد عليها تفصيلاً نقلاً وعقلاً.

سابعاً: أظهر المآخذ على المقدمة:

فلعل أكثر ما يؤخذ على المصنف في مقدمته:

١) هو عدم ذكره لموضوعات تعد من أهم ما يجب على قارئ علم التفسير الاطلاع عليه، وللمفسر الإلمام به، لتتم الفائدة ويكتمل المقصود، كعلم المكي والمدني وعلم الناسخ والمنسوخ وغير ذلك.

٢) إغفال المصنف لكثير من العلوم التي تدخل تحت مسمى أصول التفسير.

٣) ومن المآخذ: التطويل بإيراد الطرق العديدة لإفادة معنىً واحد.

٤) الإكثار من الأدلة في المسألة الواحدة.

٥) عدم بيان درجة كثير من الروايات. والله أعلم.

obeikandl.com

٣- تفسير القرآن العظيم

لأبي الليث نصر بن محمد السمرقندي المتوفى سنة (٣٧٣ هـ)

أولاً: التعريف بالمؤلف:

مصنف هذا التفسير هو إمام الهدى،أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد ابن إبراهيم السمرقندي البلخي[١] المولود بسَمَرْقَنْد[٢] من خراسان.

لم تذكر المصادر سنة ولادته، وإن كان بعضهم قد أشار أنه عاش قريباً من سبعين عاماً، ولكون وفاته كانت عام (٣٧٣هـ) على الراجح يتبين من ذلك أنه ولد في مطلع القرن الرابع الهجري، واللّه أعلم.[٣]

تربى أبو الليث في أسرة مغمورة لم تعرف بالعلم، وإن كان والده من المحبين لمجالس العلماء، فقد روى الابن بعض المرويات عن أبيه خاصة تلك المتعلقة بالوعظ، وقد استطاع الوالد أن يدفع بولده إلى مجالس العلم حتى حقق ما حققه من تقدم في العلوم والفنون، ساعده في ذلك أن أبا الليث

---

(١) انظر: الجواهر المضية للقرشي: ٣/ ٥٤٤ - وتاج التراجم لأبن قطلوبغا: ٣١٠.

(٢) سمرقند بلد مشهور من خراسان، قيل: من أبنية ذي القرنين بما وراء النهر. انظر: معجم البلدان لياقوت: ٣/ ٢٤٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن الكريم لأبي الليث، تحقيق عبد الرحيم الزقة: ١/ ٤٩.

عاش في فترة انتشرت فيها العلوم انتشاراً عظيماً، بالرغم من الحالة السياسية المضطربة التي شهدتها خراسان وسائر البلاد الإسلامية، فالسامانيون[١] الذين كانوا يحكمون سمرقند، كانوا يكرمون أهل العلم ويقربونهم، ويحثون الطلبة بشتى الوسائل إلى التعمق والنبوغ في العلوم، فتحوا لذلك معاهد العلم، وازدهرت المكتبات، ونسخت المصنفات وتوزعت، حتى كان هذا الإقليم من أجل الأقاليم وأكثرها أجلة وعلماء.[٢]

عاش السمرقندي بدايات حياته في هذا الجو المفعم بالنشاط العلمي، وإكرام أهل العلم وذويه، ورغم ذلك لم تذكر كتب التراجم غير أبي جعفر الهنداوي المتوفى (٣٦٢هـ) شيخاً لأبي الليث. وكان الهنداوي واسمه محمد ابن عبدالله إماماً في عصره وعلى جانب عظيم من الفقه والذكاء والزهد والورع[٣].

---

(١) السامانيون نسبة إلى (سامان الفارسي)، وهو جد الأسرة السامانية، أسلم في أواخر العهد الأموي، وهو من أصل فارسي. انظر: اللباب لابن الأثير: ٢/ ٥٢٤، وتاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي لحسن إبراهيم: ٣/ ٧١.

(٢) انظر: اللباب لابن الأثير: ٢/ ٥٢٤ - وتاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي لحسن إبراهيم: ٣/ ٣٣٢-٣٣٤.

(٣) انظر: الجواهر المضية للقرشي: ٣/ ١٩٢ و٥٤٤- وتاج التراجم لابن قطلوبغا: ٢٦٤و٣١٠ - والفوائد البهية: ١٧٩- ومفتاح السعادة لكبرى زاده: ٢/ ٢٧٧، والشذرات لابن العماد: ٣/ ٤١.

كما توصل بعض الباحثين[١] إلى معرفة أسماء عدد من شيوخ أبي الليث وذلك بتتبع مصنفاته، أذكر منهم:

الحاكم أبو الفضل محمد بن الحسين بن محمد الحدادي[٢]، والخليل بن أحمد السجزي[٣]، هذا إضافة إلى والده وغيره من أهل العلم.

وقد استفاد أبو الليث من تلك الكوكبة استفادة عظيمة، فتكونت لديه منذ الصبا ملكة البحث والتحقيق، حتى غدا علماً يشار إليه في الفقه والتفسير والوعظ، فعرف بإمام الهدى، ولقب بالفقيه حتى أصبح هذا اللقب ملازماً له، فلا يذكر إلا به.

أما تلامذة أبي الليث فقد اقتصدت المصادر بذكرهم أيضاً، ومنهم أبو عبداللّه

---

(١) هو الزميل/ صالح يحيى صواب، انظر تحقيقه لتفسير أبي الليث: ١/ ٢٠.

(٢)انظر: تنبيه الغافلين لأبي الليث: ٨١ .

والحدادي هو محمد بن الحسين بن محمد بن مهران المروزي الحدادي، شيخ مرو في الحديث والفقه والفتيا، توفي (٣٨٨ هـ). أنظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٦/ ٤٧٠ - الجواهر المضية للقرشي: ٣/ ١٤٤.

(٣) انظر: تنبيه الغافلين لأبي الليث: ٨٨

والسجزي هو الخليل بن أحمد بن محمد السجزي، شيخ أهل الرأي في زمانه، ومن أعظم الناس كلاماً في الوعظ، توفي (٣٧٨هـ). انظر: تاج التراجم لابن قطلوبغا: ١٦٧- وسير أعلام النبلاء للذهبي: ١٦/ ٤٣٧ - والجواهر المضية للقرشي: ٢/ ١٧٨.

طاهر بن محمد بن أحمد الحدادي صاحب عيون المجالس[١]،ولقمان بن حكيم الفرغاني[٢]، وقد أخذ هؤلاء وغيرهم العلم عن المصنف كما أخذوا عن مصنفاته، حيث اشتهرت مؤلفاته حتى نعته القرشي[٣]في جواهره بقوله: هو الإمام الكبير صاحب الأقوال المفيدة، والتصانيف المشهورة[٤].

والذي يظهر أن المصنف اشتغل بالتأليف دهراً من الزمن، وترك ثروة علمية ضخمة بلغت في تعداد بعضهم[٥] أكثر من ثلاثين تصنيفاً في فنون العلم المتعددة، أذكر منها:

خزانة الفقه (مطبوع)، ومختلف الرواية في الخلافيات (قدمت رسالة علمية في جامعة الإمام كلية الشريعة)، وعيون المسائل في الفروع (مطبوع)،

---

(١) انظر: الأنساب للسمعاني: ٤/ ٨١ - وتفسير القرآن لأبي الليث (رسالة علمية)، تحقيق/ صالح صواب: ١/ ٢٢.

(٢) انظر: الجواهر المضية للقرشي: ٢/ ٧١٨ - وتفسير القرآن لأبي الليث (رسالة علمية)، تحقيق صالح صواب: ١/ ٢٢ - وينظر تفسير القرآن الكريم لأبي الليث، تحقيق عبد الرحيم الزقة (مطبوع): ١/ ٥٣-٦٦.

(٣) هو عبد القادر بن محمد بن محمد بن نصر اللّه القرشي، فقيه ماهر، عنى بالطلب وكتب كثيراً، جمع طبقات الحنيفة، وخرج أحاديث الهداية، توفي (٧٧٥ هـ). انظر: الدرر الكامنة لابن حجر: ٢/ ٣٩٢- وشذرات الذهب لابن العماد: ٦/ ٢٣٨.

(٤) انظر الجواهر المضية للقرشي: ٣/ ٥٤٤.

(٥) انظر: تفسير القرآن لأبي الليث (رسالة علمية) تحقيق صالح صواب: ١/ ٢٧.

ورسالة في أصول الدين، وتنبيه الغافلين (مطبوع)، قرة العيون ومفرِّح القلب المحزون (مطبوع). وغيرها من التآليف المفيدة.[١]

وفاته:

اتفق المترجمون لأبي الليث أنه توفي ليلة الثلاثاء الحادي عشر من شهر جمادى الثانية، واختلفوا في تحديد العام الذي توفي فيه، والراجح أنه عام (٣٧٣هـ)[٢] لكونه يوافق الحادي عشر من شهر جمادى الثانية في سنة (٣٧٣هـ) دون غيرها من السنوات المذكورة.[٣]

ثانياً: التعريف بالتفسير والمقدمة:

---

(١) انظر: تاج التراجم لابن قطلوبغا: ٣١٠- والجواهر المضية للقرشي: ٣/ ٥٤٥ - وكشف الظنون لحاجي خليفة: ١/ ٤٨٧-٧٠٣-١١٨٣- ومفتاح السعادة لطاش كبرى زاده: ٢/ ٢٧٧.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٦/ ٣٢٢ - والجواهر المضية للقرشي: ٣/ ٥٤٥ - والفوائد البهية: ٢٢٠- وكشف الظنون لحاجي خليفة: ١/ ٢٤٣ - ومفتاح السعادة لطاش كبرى زاده: ٢/ ٢٧٨.

(٣) انظر: تفسير القرآن لأبي الليث (رسالة علمية)، تحقيق صالح صواب: ١/ ١٨. وينظر للمزيد في ترجمته: الأعلام للزركلي: ٨/ ٢٧- وتاج التراجم لابن قطلوبغا: ٣١٠- والتفسير والمفسرون للذهبي: ١/ ٢٢٥- والجواهر المضية في تراجم الحنفية للقرشي: ٣/ ٥٤٤ - وسير أعلام النبلاء للذهبي: ١٦/ ٣٢٢- وطبقات المفسرين للداوودي: ٢/ ٣٤٦- والفوائد البهية: ٢٢٠- وكشف الظنون لحاجي خليفة: ١/ ٤٤١- ومعجم المؤلفين لرضا كحالة: ١٣/ ٩١ - ومفتاح السعادة لطاش كبرى زاده: ٢/ ٢٧٧- وهدية العارفين للبغدادي: ٦/ ٤٩٠.

لقي هذا التفسير الاهتمام والعناية منذ عهد قديم، حين ترجمه إلى التركية ابن عربشاه الحنفي[١]،وحين خرَّج أحاديثه الشيخ زين الدين قاسم بن قطلوبغا الحنفي[٢][٣].

وقد اختلف في عنوانه، فذهب بعضهم إلى تسميته (بحر العلوم) وهو العنوان الذي اشتهر به، وحملته النسخة المطبوعة من التفسير، غير أنه ترجح لدى ثلة من المعنيين بهذا التفسير والمشتغلين به، أن هذه التسمية وردت خطأ على بعض نسخ الكتاب المخطوط، وهو من عمل المتأخرين، فبحر العلوم تفسير لسمرقندي آخر غير أبي الليث، ورأى هؤلاء أن الصحيح هو أن يقال: (تفسير القرآن لأبي الليث السمرقندي) أو نحو ذلك.[٤]

---

(١) هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم، المعروف بابن عربشاه، مؤرخ له اشتغال بالأدب، كان مجيداً للعربية والفارسية والتركية، ترجم بعض المصنفات، له منتهى الأرب في لغات الترك والعجم والعرب، توفي (٨٥٤ هـ). انظر شذرات الذهب لابن عماد: ٧/ ٢٨٠- والبدر الطالع للشوكاني: ١/ ١٠٩.

(٢) هو قاسم بن قطلوبغا بن عبد الله المصري الحنفي، عالم متفنن أثنى عليه مشايخه، سما في العلم وانتشر صيته، له تاج التراجم وغيره، توفي (٨٧٩ هـ). انظر: شذرات الذهب لابن عماد: ٧/ ٣٢٦- والبدر الطالع للشوكاني: ٢/ ٤٥.

(٣) انظر: البدر الطالع للشوكاني: ١/ ١١٠ - وكشف الظنون لحاجي خليفة: ١/ ٤٤١.

(٤) حول تسمية الكتاب انظر: تفسير القرآن الكريم لأبي الليث، تحقيق عبد الرحيم الزقة (مطبوع): ١/ ٩٢- وتفسير القرآن لأبي الليث تحقيق: الشيخ صالح يحيى صواب: ١/ ٣٤، والأعلام للزركلي: ٨/ ٢٨.

يُعَدُّ تفسير أبي الليث مصدراً من مصادر التفسير بالمأثور حيث اعتمد المصنف تفسير القرآن بالقرآن، ثم بالسُّنة، ثم بأقوال الصحابة والتابعين، كما أورد أقوال أهل العلم السابقين، وأعمل الرأي واجتهد في تفسير بعض الآيات، وبين رأيه غير أن اعتماده المأثور كان الغالب، وبالرغم من أن أبا الليث لم يذكر تفسير ابن جرير في تفسيره غير أنه سلك المسلك نفسه في نقل المأثور من الروايات والأقوال، وإن كان ابن جرير قد ساق ذلك بأسانيده فحصر تفسيره على المختصين، بخلاف أبي الليث الذي حذف الأسانيد فجعله للعامة والخاصة.

وكما أفاد ابن جرير من اللغة وجهود أهلها في بيان المعاني والتراكيب كذلك أفاد أبو الليث، فاعتمد كثيراً على الزجاج والفراء وابن قتيبة وغيرهم.

كما أولى المصنف اهتماماً بالقراءات القرآنية، ومعاني القرآن وإعرابه، وأحكام القرآن، والمغازي والسير، والوعظ، والزهد، والحِكَم.

وطريقة أبي الليث أنه يفسر القرآن بالجزء، ويسرد الأقوال في بيان المعاني، ولكنه نادراً ما يرجح بين الأقوال، وقليلاً ما يذكر اختياره.

وبالرغم من تأثر بعض الأعلام بالمصنف، والنقل عنه، واعتماده أقواله، كالقاضي عياض[1]، والكرماني[2]، والقرطبي ت(٦٧١هـ)،

---

(١) هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي، إمام في الحديث وعلومه،=

والسيوطي ت(٩١١هـ) والبرسوي ت(١١٢٧)[١] وغيرهم، فإنه يؤخذ على هذا التفسير مآخذ عديدة أشار إليها المشتغلون به[٢]، من أهمها الركاكة في العبارة، والضعف في التعبير، الذي ظهر في مواطن عديدة منه، والإسهاب والاستطراد في سرد الحكاية التي لا فائدة منها، إضافة إلى اعتماده بعض الأحاديث الضعيفة.

وقد جاءت مقدمة أبي الليث قصيرة موجزة، أشار المصنف فيها لمسألتين فقط، الأولى في بيان الحاجة إلى علم التفسير، والأخرى في إباحة التفسير بالرأي المبني على وجوه اللغة وأحوال التنزيل، واستدل على ما ذهب إليه ببعض الآثار روى بعضها بسنده.

وقد طبعت المقدمة ثلاث طبعات، الأولى منها نسخت على الآلة الكاتبة، وقدمت رسالة علمية من (أول الكتاب إلى نهاية سورة الأنعام)،

=والنحو واللغة، وأيام العرب وأنسابها، تصانيفه عديدة منها المدارك، توفي (٥٤٤ هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ٢٠/ ٢١٢ - والبداية والنهاية لابن كثير: ١٢/ ٢٢٥.

(٢) هو محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، المعروف بتاج القراء، له تفسير فيه أراء مستنكرة، توفي (٥٠٥هـ). انظر: بغية الوعاة للسيوطي: ٢/ ٢٧٧- وطبقات المفسرين للداودي: ٢/ ٣١٢.

(١) هو إسماعيل حقي بن مصطفى الإسلامبولي الحنفي، تركي مستعرب، له روح البيان في التفسير، توفي (١١٢٧هـ) انظر: الأعلام للزركلي: ١/ ٣١٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن لأبي الليث (رسالة علمية)، تحقيق صالح صواب: ١/ ٧٣.

إلى جامعة القاهرة، كلية دار العلوم عام ١٩٨٣م، نال بها الباحث عبد الرحيم أحمد الزقة، درجة الدكتوراة.

ثم طبعت بمطبعة الإشارد في بغداد عام ١٤٠٥هـ١٩٨٥م، الطبعة الأولى في ثلاثة مجلدات.

والطبعة الأخرى أيضاً نسخت على الآلة الكاتبة مع سورتي الفاتحة والبقرة، قدمت رسالة علمية إلى كلية أصول الدين، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، نال بها الباحث الدكتور/ محمد آل عبد القادر درجة الدكتوراة في القرآن وعلومه.

وطبعت طبعة ثالثة وظهرت كاملة غير منقوصة، في ثلاثة مجلدات، وصدرت عن دار الكتب العربية في بيروت، عام ١٤١٣هـ، بتحقيق علي محمد عوض وعادل أحمد عبد الموجود، وزكريا عبد المجيد النوتي.

ثالثاً: عرض موضوعات المقدمة:

على غير عادة المفسرين الذين يستهلون تفاسيرهم بخطبة موجزة يثنون فيها على المنعم الذي جعلهم من أهل القرآن، ووفقهم للتأليف في تفسيره، كما يبينون مناهجهم ومصادرهم والباعث على التأليف وغير ذلك قبل الشروع في المقدمة التي تخصَّص في العادة للبحث في بعض المسائل الهامة للمفسر، على غير هذا النهج استهل أبو الليث مقدمته بسرد شيء من الآيات والآثار التي تحث على طلب علم التفسير، وتبين مدى الحاجة

إليه لمن أراد فهم مراد اللّه تعالى، ليقرر بذلك أن طلب التفسير والتأويل واجب ما دام أنه تعالى أنذرهم بهذا الوحي ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وليس معنى هذا أن لكل أحد أن يطرق باب التفسير من ذات نفسه برأيه، بل من اللزوم معرفة وجوه اللغة وأحوال التنزيل، فقد ورد التحذير الشديد من الشارع في حق من يقدم على مثل ذلك، وروى المصنف في هذا المعنى بعض الآثار التي تبين تحرُّج جماعة من الصحابة من القول في القرآن بالرأي. وبه ختم المقدمة، ليشرع في تفسير البسملة فالفاتحة.

obeikandl.com

٤- النكت والعيون في تأويل القرآن الكريم

لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري المتوفى سنة (٤٥٠هـ)

أولاً: التعريف بالمؤلف:

مصنف هذا التفسير هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري[١]. والماوردي بفتح الميم والواو وسكون الراء في آخرها دال مهملة نسبة إلى بيع الماورد وعمله.[٢] والبصري نسبة إلى موطنه.

عاش الماوردي ستة وثمانين عاماً، ولم يذكر المترجمون تاريخ ميلاده، غير أن حسم هذا العمر من سنة الوفاة الذي هو عام (٤٥٠هـ) يوضح لنا أنه ولد عام (٣٦٤هـ).[٣]

تربّى الماوردي في موطنه البصرة، في أسرة يغلب عليها الاهتمام بالعلم، وتلقى تعليمه الأولي برعاية والده الذي دفعه إلى حلقات العلم، وكانت البصرة في عهده مركزاً للعلم والحضارة، وعلى درجة عالية من

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: ٥/ ٢٦٧ - ومعجم الأدباء لياقوت: ١٥/ ٥٢ - وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي: ٣/ ٢٨٥.

(٢) انظر: الأنساب للسمعاني: ٥/ ١٨١- وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي: ٣/ ٢٨٧.

(٣) انظر: تاريخ بغداد للخطيب: ١٢/ ١٠٢ -وطبقات المفسرين للداودي: ١/ ٤٢٩- وانظر ما كتبه أستاذي الدكتور محمد بن عبد الرحمن الشايع في مقدمة تحقيقه للنكت والعيون: ١/ ٨.

التقدم العلمي والحضاري، وهو السر الذي دفع قوافل طلبة العلم التوجه إليها، وكانت الثانية بعد بغداد، وحين استكمل البدايات، وتقدم في التحصيل، وتضلّع من ينابيع البصرة العلمية، وجه النظر إلى بغداد، العاصمة العلمية، فشد الرحال وودع الأهل لينضم إلى حلقات العلم هناك، ولينتظم بها، وما أن أخذ مكانه، حتى انكبَّ على الدرس والمطالعة في جو مفعم بالحركة والنشاط والحيوية، وزاحم مئات الطلبة في مدينة تعجُّ بأهل العلم، علماء ومتعلمين، في زمن كان لأهل العلم عامة والعلم الشرعي على الخصوص مكانتهم ومنزلتهم وتقديرهم الخاص، حتى كان السلاطين والأمراء يتباهون بأصحاب العمائم في مجالسهم، ويقربونهم ويغدقون عليهم العطايا والهبات، وقلّما يردون أحكامهم.

وظل الشيخ يتنقل في هذا الخضم الهائل من أهل العلم من عالم إلى آخر حتى حصل غايته، ونال مبتغاه، وتخرّج على أيدي ثلّة من أولئك المبرزين في علوم عديدة، فقُدِّمَ للتدريس، وقرر العودة إلى موطنه معلماً بعد أن كان تركها طالب علم، وتصدَّر للتدريس هناك مدة ثم عاد الكَرّة إلى بغداد ليستقر به المقام، دون أن يغادره الشوق والحنين إلى مراتع الصبا، وكانت المراسلات بينه وبين أحبته هناك تسد مسد الرؤية.

بقي في بغداد مدرساً فقاضياً ثم أقضى القضاة، وانكبّ على التأليف والتصنيف حتى اشتهر صيته وذاع اسمه، وانتهت إليه رئاسة وإمامة

المذهب الشافعي في عصره.[١]

لقي الماوردي تقديراً وإكراماً واضحين من أهل عصره، لما امتاز به يرحمه اللّه من علوّ الهمة وطول الباع في العلوم والمعارف، ولما عرف به من الوقار والأدب، يقول السبكي: كان إماماً جليلاً رفيع الشأن، له اليد الباسطة في المذهب، والمتفنن في سائر العلوم.[٢]

ويقول ابن كثير: كان حليماً وقوراً أديباً.[٣] ويقول تلميذه ابن خيرون[٤]: كان رجلاً عظيم القدر، متقدماً عند السلطان، أحد الأئمة، له التصانيف الحسان في كل فن من العلم.[٥]

وحين يصف عبد الملك الهمذاني[٦] وهو تلميذ له أدبه الجم وحياؤه

---

(١) انظر: تاريخ بغداد للخطيب: ١٢/ ١٠٢ - وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي: ٥/ ٢٦٧-٢٦٩ - وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي: ٣/ ٢٨٥-٢٨٧.

(٢) انظر طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: ٥/ ٢٦٨.

(٣) انظر البداية والنهاية لابن كثير: ١٢/ ٨٠.

(٤) هو أحمد بن الحسن بن خيرون، المعروف بابن الباقلاني، محدث بغداد، كان ثقة عدلاً واسع الرواية، توفي (٤٨٨هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٩/ ١٠٥- ولسان الميزان لابن حجر: ١/ ١٥٥.

(٥) انظر طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: ٥/ ٢٦٨ - وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي: ٣/ ٢٨٦.

(٦) هو عبد الملك بن إبراهيم بن أحمد الهمذاني، عرف عنه العلم بالفرائض والقسمة=

ووقاره يقول: لم أرَ أوقَرَ منه، ولم أسمع منه مُضحِكَةً قط، ولا رأيت ذراعه منذ صحبته إلى أن فارق الدنيا.[١]

وقد عرف عن الماوردي إلى جانب الرسوخ في العلم، الجرأة في قول الحق والصراحة فيه فهو لا يخشى في اللّهِ لومة لائم، وعظيمَ التقدير لأهل العلم، والتواضع والبعد عن العجب بالذات، كما عرف عنه أنه كان أواباً، متى عرف الخطأ تراجع عنه، وسيرته مليئة بأخبار تحكي هذه المعاني.[٢]

وأشيع عن الماوردي أنه معتزلي، يقول ببعض مقولاتهم، وأول من اتهمه بذلك ابن الصلاح[٣] المحدث عفا اللّه عنه [٤] وتبعه آخرون، وتصدى للتهمة ثلة من أهل العلم[٥]، وبقي الاتهام مدار البحث بين مثبت ونافٍ،

=والتركات، عُرض عليه القضاء فامتنع، توفي (٤٨٩هـ). انظر: طبقات السبكي: ٥/ ١٦٢ - وسير أعلام النبلاء للذهبي: ١٩/ ٣١.

(١) انظر: معجم الأدباء لياقوت: ١٥/ ٥٤.

(٢) انظر طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: ٥/ ٢٧٠-٢٧٢- وأدب الدنيا والدين للمصنف: ٨١.

(٣) هو عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان الكردي الشهرزوري، المعروف بابن الصلاح، أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث، له معرفة أنواع علوم الحديث، توفي (٦٤٣هـ) انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان: ٣/ ٢٤٣- وسير أعلام النبلاء للذهبي: ٢٣/ ١٤٠.

(٤) انظر طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: ٥/ ٢٧٠.

(٥) انظر لسان الميزان لابن حجر: ٤/ ٢٦٠.

إلى أن جاء الأستاذ عدنان زرزور ليذهب بعيداً فيجعل تفسيره من تفاسير المعتزلة، وليقول مقولته: وأياً ما كان الأمر فإن الماوردي وضع تفسيره على أصول المعتزلة ومنهجهم في التفسير، سواء خالفهم في بعض المسائل أم لا، وسواء أجاهر بالاعتزال أم لا، وإن كنا لا ندري ما هو (حد) الجهر عند ابن الصلاح.(١)

وقد قيّض اللّه للماوردي بعض أهل العلم، ردوا على الأستاذ عدنان زرزور، وبينوا أن ما قاله اتهام لا محل له من الصحة، وأنه حكمٌ متسرعٍ يعوزه التحقيق، وأن الماوردي وإن وافق القوم في القول بالقدر فإن ذلك لا يعني أنه معتزلي، بل غاية ما يقال فيه أن له مسائل وافق اجتهاده فيها مقالات المعتزلة، ولا ينبغي أن يطلق عليه اسم الاعتزال، كما قال ابن حجر.(٢)

شيوخه وتلاميذه:

تتلمذ الماوردي على خلق كثير من أهل موطنه البصرة، ومهجره بغداد، وزاحم الركب في حلقات عديدة، ومن شيوخه:

---

(١) انظر الحاكم الجشمي ومنهجه في التفسير، للدكتور/ عدنان زرزور: ١٤٣.

(٢) انظر: العز بن عبد السلام حياته وآثاره ومنهجه في التفسير، للدكتور/ عبد اللّه بن إبراهيم الوهيبي: ١٩٢ - وانظر: ما كتبه أستاذي الدكتور محمد بن عبد الرحمن الشايع في مقدمة تحقيقه للنكت والعيون: ١/ ١٤١-١٥٦.

أبو القاسم عبد الواحد الصميري[١]، وأبو حامد أحمد بن أبـي طـاهر محمد بن أحمد الإسفراييني وغيرهما.

أما الذين تلقوا العلم عن الماوردي فهم أيضاً خلـق كثـير، فالمـاوردي كما علمنا من سيرته عمل بالتدريس ردحاً من الزمـن في البصـرة وبغـداد، كما أن عمله في سلك القضاء وحيازته لقب أقضى القضاة، وإسـناد رئاسـة وإمامة مذهب الشافعية له، جعل الطلبة يحرصون على التلقي عنه.

فمن تلامذتـه:

أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي[٢]، وعلي بن سعيد العبدري ت(٤٩٣هـ)[٣] وغيرهما.

---

(١) هو عبد الواحد بن الحسين بن محمد القاضي الصميري، أحد أئمـة الشـافعية، نسـبة إلى صمير أحد أنهار البصرة، من تصانيفـه الإيضـاح في المذهـب، تـوفي (٣٨٦هـ). انظـر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: ٣/ ٣٣٩- ومعجم البلدان لياقوت: ٣/ ٤٣٩.

(٢) هو أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، المعروف بالخطيب، حافظ ناقد مـؤرخ، مصنفاتـه كثيرة جداً، منها تاريخ بغداد، أطال الذهبي في ترجمته، توفي (٤٦٣هـ) انظر: سـير أعـلام النبلاء للذهبي: ١٨/ ٢٧٠- تذكرة الحافظ للذهـبي: ٣/ ٣١٧ - والبدايـة والنهايـة لابـن كثير: ١٢/ ١٠١.

(٣) هو علي بن سعيد بن عبد الرحمن بن محرز العبـدري، عـالم عـارف بـاختلاف العلمـاء، صاحب الفتيا، توفي (٤٩٣هـ) انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: ٥/ ٢٥٧.

مؤلفاتـه:

للماوردي تصانيف حسان في كل فن، كما قال ياقوت في معجمه[١]، فهو مُصَنِّفٌ موسوعي، وقد وصل عدد مؤلفاته إلى ثمانية عشر مؤلَّفاً، نذكر منها: الأحكام السلطانية، ولأهميته تُرجم إلى عدد من اللغات، وهو من أشهر مصنفات المؤلف[٢]، وأمثال القرآن، ويعد الماوردي أول من أفرد هذا الفن بتأليف مستقل، والحاوي الكبير في الفقه (مطبوع)، الاقناع، وهو مختصر للحاوي، مجرد عن الأدلة، وكتاب في البيوع، وقوانين الوزارة وسياسة الملك (مطبوع)، وأدب الدنيا والدين (مطبوع). إضافة إلى تفسيره النكت والعيون، وغيرها من المصنفات.[٣]

وفاته:

توفي الماوردي رحمه اللّه يوم الثلاثاء، آخر شهر ربيع الأول سنة ٤٥٠هـ، ودفن في بغداد، وحضر جنازته جمع غفير من أهل العلم والريادة.[٤]

---

(١) انظر: معجم الأدباء: ١٥/ ٥٤.

(٢) انظر: مقدمة تحقيق النكت والعيون للدكتور الشايع: ١/ ٥٩.

(٣) ينظر: أدب الدنيا والدين للمصنف: ٨١- وطبقات المفسرين للداودي: ١/ ٤٢٨ - وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي: ٣/ ٢٨٦- وانظر ما كتبه الدكتور الشايع عن مصنفات الماوردي في مقدمة تحقيقه للنكت والعيون: ١/ ٢٤-٦٦.

(٤) انظر: تاريخ بغداد للخطيب: ١٢/ ١٠٢ . وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي: ٥/ ٢٦٩.=

ثانياً: التعريف بالتفسير والمقدمة:

حصر الأقوال، وحسن العرض، مع جمال الأسلوب، ودقة العبارة والإيجاز، كلها نعوت تنطبع في فكر الناظر في النكت والعيون للماوردي منذ الوهلة الأولى، وهي كلها تدل على ما أوتي المصنف من قوة البيان وسلامة الفكر التي مكّنته من تقديم مادة تفسيره بصورة تترك ذاك الانطباع الجميل لدى القارئ.

فالقارئ للماوردي في تفسيره لا يجد الاستطراد الذي قد يبعد بالمعاني، وينأى بالقريب، كما هو الحال عند بعض المفسرين، مع أن المصنف قلّما يهمل قولاً ذي بال دون أن يذكره.

لقد اقتصر الماوردي في تفسيره على بيان الغامض الخفي من آيات الذكر الحكيم، دون الظاهر الجلي إذ هو مفهوم من التلاوة، جمع لبيان ذلك

=قد أورد فضيلة الدكتور محمد بن عبد الرحمن الشايع، في المقدمة التي قدمها بين يدي تحقيقه للنكت والعيون: ١/ ١-٦٦ قائمة طويلة بالمصادر التي ترجمت للماوردي بلغت ستاً وأربعين مرجعاً، نختار منها ما رجعت إليه وهي: الأنساب للسمعاني: ٥/ ١٨١ - البداية والنهاية لابن كثير: ١٢/ ٨٠- وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي: ١٢/ ١٠٢ - وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي: ٣/ ٢٨٥-٢٨٧- وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي: ٥/ ١٦٧-١٨٥- وطبقات المفسرين للداودي: ١/ ٤٢٧-٤٢٩ دار الكتب العلمية - بيروت - وطبقات المفسرين للسيوطي: ٧١- ولسان الميزان لابن حجر: ٤/ ٢٦٠ - ومعجم الأدباء لياقوت الحموي: ١٥/ ٥٢.

أقوال أهل العلم من السلف والخلف، وأضاف ما سنح به الخاطر مما توصل إليه بإعمال الفكر، والنظر في الأدلة، متبعاً الإيجاز والاختصار في نقل الأقوال والأخبار، وعرضها بأسلوب بديع وعبارة زادت المعاني جلاءً ووضوحاً، دون أن يغفل عن التصريح بالقائل، أو التعقيب على الرديء المتكلف من الأقوال أحياناً كثيرة.

واهتم المصنف في تفسيره أيضاً ببيان أسباب النزول والقراءات غالباً، كما أولى الجانب اللغوي اهتماماً عظيماً، وخاصة الفروق اللغوية بين المفردات التي يظن أنها مترادفة، وكذا اهتم ببيان الأحكام الفقهية، واستطاع أن يعالج الأحكام معالجة قرآنية بعيداً عن الاستطرادات الفقهية، رغم أن الماوردي عرف فقيهاً أكثر منه مفسراً.

وقد استمد المصنف مادة تفسيره من مصادر عديدة ومتنوعة، في شتى الفنون، من الأثر والمعقول. وبين في الخطبة التي قدمها بين يدي تفسيره منهجه في التصنيف فقال:

(ولما كان ظاهرُ الجليِّ مفهوماً بالتلاوة، وكان الغامضُ الخفيُّ لا يعلمُ إلا من وجهين: نقلٍ واجتهادٍ، جعلت كتابي هذا مقصوراً على تأويل ما خفي علمه، وتفسير ما غمض تصوُّرُهُ وفهمه، وجعلته جامعاً بين أقاويل السلف والخلف، وموضحاً عن المؤتلف والمختلف، وذاكراً ما سنح به الخاطر من معنىً يحتمل، عبّرت عنه بأنه محتمل، ليتميَّز ما قيل مما قلته، ويُعْلَمَ ما استخرج مما استَخرَجْتُه.، وعَدَلت عمَّا ظهر معناه من فحواهُ،

اكتفاءً بفهم قارئه وتصوُّر تاليه، ليكون أقرب مأخذاً، وأسهل مطلباً).[١]

وطريقة المصنف يرحمه اللّه أنه يسرد الآية أو الجزء من الآية التي هو بصدد بيان غامضه، وتأويل خفيِّه، ثم يعقب ذلك بالبيان بعبارة موجزة، فإن كان هناك اختلاف بين أهل العلم في تعيين المراد، يصرِّح بذلك في الغالب ثم يقول: (فيه أقوال)، أو يقول: (فيه قولان)، أو (ثلاثة أقوال)... وهكذا. ثم يقول: (القول الأول) ويذكره، ثم (الثاني) ويذكره.. وهكذا.

ولتفسير الماوردي أثر واضح في كثير من التفاسير التي جاءت بعده كابن الجوزي والقرطبي وأبي حيان، وغيرهم وإن كان الأول أكثرهم تأثراً، فقد التزم منهج الماوردي وطريقته في العرض والإيجاز.

وسبق أن أشرت إلى ما أُشيع حول الماوردي من تهمة الاعتزال، وعدُّ تفسيره واحداً من تفاسير القوم، وبينت أن ذلك اتهام لا يخرج التفسير من تفاسير أهل السنة بأية حال وإن وافق بعض اجتهاداته مقولات القوم.

وعلى العموم يستطيع المرء أن يلخص القول في هذا التفسير ويقول:

١) إنه مختصر كامل للقرآن، وتفسير للغامض من ألفاظ ومعاني الذكر الحكيم.

٢) إنه تفسير جمع المصنف فيه بين الرواية والدارية، وجعله جامعاً

---

(١) انظر المقدمة: ١/ ٢١.

لأقاويل السلف والخلف.

٣) إن المصنف اهتم بذكر اللغة والقراءات وأسباب النزول والأحكام الفقهية.

٤) امتاز هذا التفسير بحسن عرض الآراء والأقوال وحصرها، مع نسبتها إلى قائليها، بأسلوب جميل وعبارة دقيقة موجزة.

وقد قدم الماوردي لتفسير القرآن (فصولاً تكون لعلمه أصولاً، يستوضح منها ما اشتبه تأويله، وخفي دليله)[1] بهذه العبارة نعت الماوردي المقدمة التي قدمها بين يدي تفسيره والتي استغرقت ما يربو على عشرين صفحة من القطع المتوسط،وجاءت كالتفسير تماماً من حيث البلاغة والبيان وقوة العبارة والإيجاز.

تعرض المصنف لعدة موضوعات، وأسماها فصولاً، سلك فيها مسلك الإيجاز فيما يتعلق بنقل الأقوال والآراء، وذكر الأدلة باختصار، دون اعتماد الردود والمناقشات، مع تجنب ذكر الأقوال الضعيفة والمردودة.

وامتازت المقدمة بحسن السبر والتقسيم للأقوال والموضوعات، وهو أمر أجلى الموضوعات المطروقة وبيّنها، فكانت في غاية الوضوح، وهذه الموضوعات هي:

---

(١) انظر المقدمة: ١/ ٢١.

١- أسماء القرآن.

٢- أسماء سور القرآن.

٣- معنى السورة والآية.

٤- الأحرف السبعة.

٥- إعجاز القرآن.

٦- حكم التفسير بالرأي أو الاجتهاد.

٧- أقسام التفسير.

٨- الظهر والبطن والحد والمطلع.

وقد طبعت المقدمة فيما أعلم ثلاث طبعات، إحداها بالآلة الكاتبة، والطبعات على النحو التالي:

١) طبعت على الآلة الكاتبة، مع دراسة للمؤلف وللكتاب، وتحقيق أجزاء منه، بتحقيق فضيلة الدكتور محمد بن عبد الرحمن الشايع، بعنوان: تفسير الماوردي النكت والعيون في تأويل القرآن الكريم، قدمت رسالة علمية لنيل درجة الدكتوراه في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

٢) قامت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت بطباعة ونشر الكتاب بتحقيق السيد خضر محمد خضر، ومراجعة الدكتور/ عبد

obeikandl.com

الستار أبو غدة. وعلى الطبعة ملحوظات وفيها سقط أشار إليها فضيلة الدكتور الشايع في دراسته للكتاب.[١]

٣) صدرت أخيراً طبعة علق عليها وراجعها السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم، وقامت دار الكتب العلمية، ومؤسسة الكتب الثقافية ببيروت بطباعتها ونشرها. وهي التي اعتمدتها في هذه الدراسة.

ثالثاً: عرض موضوعات المقدمة:

أسدى الماوردي الشكر للمنعم الذي هداه والمسلمين للدين القويم، ومنَّ عليهم بالكتاب المعجز المبين، ولأن من الكتاب ما هو ظاهر جلي مفهوم بالتلاوة يفهمه العامة فضلاً عن الخاصة، ومنه الغامض الخفي الذي خص اللّه لتأويله العلماء دون غيرهم، جعل المصنف كتابه هذا مقصوراً على تأويل ما خفي علمه، وتفسير ما غمض فهمه.

كان هذا في التقديم الذي قدمه الماروردي بين يدي تفسيره، كما بيّن فيه منهجه في التفسير، وما قدّم بين يدي تفسيره من مقدمات هي كالأصول له، يُستوضَح منها ما اشتبه تأويله، وخفي دليله. ثم سأل اللّه العون والسداد، وشرع في بيان المقصود.

فذكر أنه تعالى جلَّت قدرته سمى كتابه المنزل بأسماء، هي القرآن

---

(١) انظر النكت والعيون تحقيق الدكتور محمد بن عبد الرحمن الشايع: ١/ ٤٧-٥٣.

والفرقان والكتاب والذكر، فبين دليل كل تسمية من آيات الذكر الحكيم، ثم شرع في بيان تأويل تلك التسميات، وبيان أقوال العلماء فيها، وكان هذا هو مضمون الفصل الأول من المقدمات.

في حين خصص الفصل الذي يليه لبيان تأويل أسماء كتب اللّه المنزلة، التوراة والزبور والإنجيل.

وانتقل عقب ذلك إلى قوله ﷺ في الحديث الذي رواه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه[1]: أعطاني ربي مكان التوراة السبع الطوال، ومكان الإنجيل المثاني، ومكان الزبور المئين، وفضلني ربي بالمفصل.[2]

فذكر ما هي السبع الطوال، كما ذكر سبب التسمية، وبين ما هي المئين، ثم المثاني والأقوال الواردة في بيانها، وأخيراً المفصل وسبب التسمية والخلاف في تحديد أول المفصل.

ثم بين في الفصل الذي يليه معنى السورة والآية، فبيَّن أولاً أن

---

(١) هو واثلة بن الأسقع بن كعب الليثي، صحابي شجاع فاضل، أحد فقراء الصفة، قدم المدينة ورسول اللّه ﷺ يتجهز لغزوة تبوك فأسلم، وعاد إلى قومه فأسلمت أخته، ثم عاد فشهد تبوك مع رسول اللّه ﷺ، توفي (٨٥هـ). انظر: طبقات ابن سعد: ١/ ٣٠٥ - والإصابة لابن حجر: ٣/ ٦٢٦.

(٢) رواه الطبري في التفسير: ١/ ١٠٠، قال الأستاذ شاكر -يرحمه اللّه-: رواه الطبري هنا بإسنادين، أحدهما صحيح، والآخر ضعيف. ورواه الطبراني في الكبير: ٢٢/ ٧٥.

السورة وردت بالهمز وبغير همز، وبيَّن خلاف أهل العلم على كلٍّ، ثم أوضح معنى الآية وتأويلها وسبب التسمية.

عقب ذلك انتقل إلى الحديث عن الأحرف السبعة، فذكر الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ عن رسول اللّه ﷺ في نزول القرآن على سبعة أحرف.[1] واختلاف المفسرين في تأويل السبعة أحرف التي نزل القرآن بها، فذكر أن الأقوال أربعة، سردها بعبارة مختصرة وذكر الأدلة بإيجاز، ودون أن يرجِّح شيئاً منها.

ثم كان الحديث عن إعجاز القرآن الذي عجزت العرب عن الإتيان بمثله، فذكر ثمانية وجوه للإعجاز، هي حصيلة أقوال أهل العلم في المسألة، وهي:

١) أن وجه إعجازه هو الإعجاز والبلاغة.

٢) أنه البيان والفصاحة.

٣) وقيل: بل هو الرصف الذي تنقضي به العادة، حتى صار خارجاً

---

(١) قال ﷺ: «نزل القرآن على سبعة أحرف والمراء في القران كفر (ثلاث مرات) فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم فردوه إلى عالمه». أخرجه الطبري في تفسيره: ١/ ٢١، والإمام أحمد في المسند: ٢/ ٣٠٠ ط الحلبي. وأورده الهيثمي في المجمع: ٧/ ١٥١.

عن جنس كلام العرب من النظم والنثر والخطب... وغير ذلك.

٤) أن وجه إعجازه هو أن قارئه لا يكلُّ وأن سامعه لا يملُّ.

٥) أنه لما فيه من الأخبار بما كان مما علموه أو لم يعلموه، وإذا سألوا عنه عرفوا صحته.

٦) هو ما فيه من علم الغيب، والإخبار بما يكون.

٧) كونه جامعاً لعلوم لم تكن فيهم آلاتها، ولا تتعاطى العرب الكلام فيها، ولا يحيط بها من علماء الأمم واحد، ولا يشتمل عليها كتاب.

٨) أن وجه إعجازه هو في الصَّرْفة بأحد وجهيه، إما أن العرب صُرفوا عن القدرة عليه، ولو تعرضوا لعجزوا عنه، أو أنهم صُرفوا عن التعرض له.

وانتهى المصنف إلى القول بأن القرآن معجز بكل تلك الوجوه. ويعد رأيه هذا بمثابة قول تاسع، وهو أبلغ في الإعجاز وأبدع في الفصاحة والإيجاز.

انتقل المصنف بعد هذا للحديث عن التفسير بالرأي والاجتهاد، فبيَّن أن كون القرآن في تلك المنزلة من الإعجاز في النظم والمعنى يستدعي لمن أراد العمل بموجبه ضرورة استخراج معاني ألفاظه، وهو أمر يحتاج إلى زيادة تأمل في الألفاظ والآيات ليصل المرء إلى جميع ما تضمنته تلك الألفاظ من المعاني، واحتملته من التأويل، ولهذا لا مناص من القول بضرورة

الاجتهاد في فهم النص، وهو أمر تعبَّد اللّه تعالى به خلقه في خطابهم بلسان عربي مبين، فقال تعالى ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

ثم عرّض بأولئك الذين فهموا قوله ﷺ في الحديث الذي رواه جندب بن عبداللّه رضي الله عنه [(١)]: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»[(٢)] فهماً خاطئاً، فظنوا أنه الإحجام عن التفسير وإن كانت الشواهد واضحة، وأمرُّوا الحديث على ظاهره، فوصفهم بقلة العلم، ونعتهم بضعف الخبرة.

بعدها بيَّن تأويل الحديث على الوجه الصحيح الذي رآه، فقال: ولهذا الحديث إن صحَّ تأويل معناه: أن من حمل القرآن على رأيه، ولم يعمل على شواهد ألفاظه فأصاب الحق فقد أخطأ الدليل.[(٣)] وهو فهم معتبر للنص ارتضاه خلق ممَّن جاء بعده كابن عطية والقرطبي وغيرهما.

إثرها ذكر المصنف المروي عن ابن عباس رضي اللّه عنهما عن

---

(١) هو جندب بن عبد اللّه بن سفيان البجلي العَلَقي، صحابي سكن الكوفة والبصرة، توفي في فتنة الزبير فيما بين (٦٠-٧٠ هـ) انظر: الاستيعاب لابن عبد البر: ١/ ٢١٧- والإصابة لابن حجر: ١/ ٢٤٨.

(٢) رواه الطبري في التفسير: ١/ ٧٩، والبغوي في شرح السنة: ١/ ٢٥٩، والنسائي في فضائل القرآن: ١١٤، والترمذي في سننه: ٥/ ٢٠٠، وقال: وقد تكلم بعض أهل الحديث في سهيل بن أبي حزم. وقال الحافظ في التقريب: ١/ ٣٣٨ عن سهيل بن أبي حزم: ضعيف.

(٣) انظر النكت والعيون: ١/ ٣٥.

رسول اللّه ﷺ: «القرآن ذَلُولٌ ذو وجوه فاحملوه على أحسن وجوهه».[١] فبين تأويل مفردات الأثر، وقال: وهذا دليل على أن تأويل القرآن مستنبط منه.[٢]

انتقل المصنف بعد هذا ليبيِّن أقسام التفسير، فأوضح أنه إذا جاز الاجتهاد في استخراج معاني القرآن من فحوى ألفاظه، وشواهد خطابه الأمر الذي أقره قبل قليل فإن الحبر ابن عباس رضي اللّه عنهما قسم التفسير أربعة أقسام، ذكرها وارتضاها، وعقب على الأخير منها وهو القسم الذي لا يعذر أحد بجهالته، فبين أنه داخل في جملة ما يعلمه العلماء، وبذلك يصير التفسير عنده ثلاثة أقسام:

١) قسم اختص اللّه تعالى بعلمه، واستأثر به ولم يُطْلِعْ عليه عباده.

٢) قسم يُرجع في معرفته إلى لسان العرب.

٣) وقسم ثالث يرجع فيه إلى اجتهاد العلماء، وهو تأويل المتشابه، واستنباط الأحكام، وبيان المجمل وما إلى ذلك.

وبين أن العلماء قد يختلفون في تأويل بعض المعاني للألفاظ المحتملة لأكثر من معنى، وحينئذ لا مناص للترجيح بين الأقوال من التعويل على

---

(١) رواه الدارقطني في السنن عن ابن عباس: ٤/ ١٤٥، وفي إسناده زكريا بن عطية، قال عنه أبو حاتم: منكر الحديث. انظر ميزان الاعتدال: ٢/ ٧٤.

(٢) انظر: النكت والعيون: ١/ ٣٦.

الضوابط التي وضعها العلماء، لهذا ذكر المصنف ما الذي يُفعَلُ في مثل هذه الحالات.

وجاء الختام لبيان معنى الحد والمطلع، والظهر والبطن، وهي المفردات الواردة في الأثر الوارد عن النبي ﷺ: «ما نزل من القرآن من آية إلا لها ظهر وبطن، ولكل حرف حدٌّ، ولكل حدٍّ مَطْلَعٌ».(١)

رابعاً: منهج الماوردي في مقدمته:

قسم الماوردي المقدمة التي قدمها بين يدي تفسيره والتي جعلها أصولاً فصولاً، خصَّ كل فصل لأصل من تلك الأصول التي رأى أنها توضح المشتبه، وتُظهر الدليل للناظر في التفسير.

وقد اقتصد المصنف في القول والبيان، لكل ما رأى بحثه من الأصول والفنون، فقدم ما أراد تقديمه بعبارة موجزة رصينة، متبعاً نهجاً يُعَدُّ الرائد فيه، ومن أبرز ملامح هذا النهج:

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه برقم ٧٤: ١/ ١٥٧، عن ابن مسعود. وذكره الهيثمي في المجمع: ٧/ ١٥٢ ونسبه للبزار وأبي يعلى والطبراني في الأوسط. وقال: رجال أحدهما ثقات. وأخرجه الطبري في التفسير: ١/ ٢٢ عن ابن مسعود بلفظ: أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل حرف منها ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع. قال أحمد شاكر: روي بإسنادين ضعيفين، أما أحدهما فلانقطاعه بجهالة راويه. وأما الآخر فمن أجل إبراهيم الهَجَري.

١- حسن عرض الأقوال في المسائل المختلف فيها، فتراه يجمل الأقوال ويحصرها في عدد، ثم يفصلها بعد ذلك بذكر الأول فالثاني فالثالث... ذاكراً ما قد يتفرع على ما سبق أن ذكره من أقوال مع نسبة الأقوال إلى قائليها من الصحابة والتابعين والأئمة المعتبرين.

٢- إيجاز العبارة، ودقة التعبير، وجمال الأسلوب.(١)

فقد أحسن المصنف القول، وأحكم العبارة، وهو أمر يعزو فضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن الشايع التوفيق فيه بعد اللّه إلى موسوعية المصنف، وسعة علمه، وتنوع ثقافته، الأمر الذي مكَّنَ المصنف من صياغة تفسيره ومنها المقدمة بأسلوب أدبي رفيع أظهرت تمكنه من ناصية اللغة، والبراعة في اختيار المفردات والتراكيب، حتى إنك نادراً ما تجد عبارة أو جملة يمكن حذفها أو الاستغناء عنها بغيرها، وهو بهذا جمع بين دقة عبارة الفقيه، وجمال أسلوب الأديب.(٢)

ومن منهج المصنف ذكر الأدلة لأغلب الأقوال والآراء التي يوردها، آيةً كانت أم حديثاً أم شاهداً من كلام العرب وأشعارها، وهو في استشهاده بالأثر لا يذكر صحة ما يستشهد به، إلا نادراً.(٣)

---

(١) انظر: النكت والعيون بتحقيق الدكتور محمد بن عبد الرحمن الشايع ١- ١٢٤.

(٢) انظر: النكت والعيون بتحقيق الدكتور محمد بن عبد الرحمن الشايع ١/ ١٢٤.

(٣) انظر: النكت والعيون: ١/ ٣٥.

وللماوردي اختياراته في بعض المسائل، فهو قد يرد على بعض الأقوال ويضعفها، وقد يصرح برأيه في بعض الأحايين.(١)

تلك هي السمات البارزة لمنهج الماوردي.(٢)

خامساً: مدى التزام المصنف في تفسيره بما ذكره في مقدمته:

الناظر في خطبة الماوردي التي قدم بها تفسيره يجده حدد ملامح منهجه بوضوح، فهو قد حصر تفسيره على بيان الغامض إذ هو محل بحث العلماء، دون الظاهر الذي يفهمه كل عارف بلغة العرب، وهذا شرط التزمه وسار عليه.(٣)

ومن شرطه جمع أقوال علماء السلف في بيان هذا الغامض، وعرضها، وهذا الآخر التزمه المصنف فهو لا يتوانى عن عرض أقوال السلف في بيان معاني الألفاظ ومدلولاتها، ونسبة ذلك إليهم في الغالب، كما أنه يصرح بموقفه ورأيه في كثير منها، معللاً رأيه أحياناً، وتاركاً التعليل في أحايين أخرى.(٤)

---

(١) ينظر مثال ذلك: ١/ ٢٦-٢٨.

(٢) انظر أمثلة ذلك: ١/ ٣٠ -٣٢- ٣٤- ٣٦.

(٣) انظر: أمثلة ذلك: ١/ ١٣٩ - ٢٥٩ - ٤٦٦.

(٤) انظر: أمثلة ذلك: ١/ ١٨٧ - ٢٦٣ - ٤١٠ - ٤٦١.

كما اشترط الماوردي أن يضيف إلى أقوال السابقين ما سنح به خاطره من المعاني.[١]

سادساً: مصادر الماوردي في مقدمته:

لم يصرح الماوردي في مقدمته باسم مصدر واحد من مصادره التي استمد منها مادة مقدمته، وإن كان قد صرح بذكر أسماء بعض الأعلام ممن لهم اختيارات في بعض المسائل، وتأويل لبعض الآثار، وهي سمةٌ لمنهج الماوردي كما ذكرت ذلك قبل قليل، وقد عزا جملة من الأقوال إلى قائليها سواء من الصحابة كابن عباس رضي اللّه عنهما [٢]، أو التابعين كسعيد بن جبير[٣]، والحسن البصري[٤]، وقتادة[٥]، كما عزا إلى أبي عبيد القاسم بن سلام في أكثر من موضع[٦]، والأصمعي.[٧]

---

(١) انظر أمثلة التزام المصنف بمنهجه في: ١/ -٣٧٠- ٤٦٥.

(٢) انظر مثاله الصفحات: ١/ ٢٣- ٢٦ - ٢٧ - ٣٥ - ٣٦.

(٣) انظر مثاله الصفحات: ١/ ٢٦.

(٤) انظر مثاله: ١/ ٢٦.

(٥) انظر مثاله: ١/ ٢٤.

(٦) انظر مثاله الصفحات: ١/ ٣٠ -٤١.

(٧) انظر مثاله: ١/ ٣١، والأصمعي هو عبد الملك بن قريب بن عبد الملك الأصمعي، نحوي لغوي إخباري، نعته الذهبي فقال: حجة الأدب، لسان العرب، توفي (٢١٥هـ).انظر: طبقات النحويين واللغويين للزبيدي: ١٦٧- وسير أعلام =

وطريقته في العزو في الغالب أنه يذكر القول، ثم يقول: وهو قول فلان. أو وهذا قاله فلان[١].أو أن يحكي القول أو الحكاية ثم يقول: حكاه فلان.[٢]

سابعاً: أهم مزايا مقدمة الماوردي:

يُعدُّ الماوردي من المفسرين المتقدمين الذين قدموا بين يدي تفاسيرهم مقدمات في علوم القرآن، وهي في حد ذاتها ميزة لها أهمية خاصة إذ هم الذين أصَّلوا فن المقدمات.

وقد امتازت المقدمة بميزات أظهرها:

١- تناوله جملة من الموضوعات التي لها أهميتها في عصر المؤلف، كموضوع الإعجاز والتفسير بالرأي.

٢- حسن السبر والتقسيم، مع الشمول والحصر للأقوال في المسائل المطروقة، وعرضها بعبارة موجزة جميلة وأسلوب أدبي رصين.

٣- عزو الأقوال إلى قائليها في الغالب.

=النبلاء لذهبي: ١٠/ ١٧٥.

(١) انظر: النكت والعيون: ١/ ٢٤- ٢٦ - ٤١.

(٢) انظر: النكت والعيون: ١/ ٣٠ - ٣١.

٤- التوجيه والتوضيح لبعض النصوص والآثار.

ثامناً: أهم المآخذ على المقدمة:

١) عدم تناول بعض الموضوعات الهامة كالمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، وأحسن طرق التفسير، وحكم تفسير الصحابي، والتابعي، وغير ذلك مما هو من صلب أصول التفسير.

٢) القصور في معالجة بعض المسائل التي كان من المفترض بيانها بصورة أفضل، كالأحرف السبعة، الموضوع الذي تعددت فيه الأقوال حتى في زمن المصنف بل قبله، وتباينت بصورة ملحوظة، فكان من حق القارئ أن يبين المصنف الرأي الراجح فيه.

٣) عدم بيان درجة الآثار التي استشهد بها المصنف عند ذكره للأقوال وسرده للآراء.

obeikandl.com

٥- الوسيط في تفسير القرآن المجيد[١]

لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي المتوفى سنة (٤٦٨هـ)

أولاً: التعريف بالمؤلف:

مؤلف هذا التفسير هو الإمام أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي بن مَتُّوَيْهْ الواحدي[٢] النيسابوري المولود عام (٣٩٨هـ)[٣].

---

(١) ورد في تاريخ الأدب العربي لبروكلمان: ١/ ٧٣٠ تسميته: «الوسيط بين المقبوض والبسيط».

(٢) مَتُّوَيه - بفتح الميم وتشديد التاء المثناه من فوقها وضمها وسكون الواو وبعدها ياء مفتوحة مثناة من تحتها ثم هاء ساكنة - نسبة إلى الجد المنتسب إليه. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان: ٣/ ٣٠٤ - والأنساب للسمعاني: ٥/ ١٩٤ - والواحدي: قال ابن خلكان: لم أعرف هذه النسبة إلى أي شيء هي، ولا ذكرها السمعاني، ثم وجدت هذه النسبة إلى الواحد بن الديل بن مهرة، ذكره أبو أحمد العسكري. انظر: وفيات الأعيان: ٣/ ٣٠٤ - ومرآة الجنان لليافعي: ٣/ ٩٦.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٨/ ٣٣٩ - وطبقات المفسرين للسيوطي: ٦٦ - ووفيات الأعيان لابن خلكان: ٣/ ٣٠٣.

obeikandl.com

نشأ الواحدي ميسوراً في رغد من العيش، ضمن أسرة عرفت بالتجارة، واشتهرت بالثراء، وعُرف أنه ثالث أخويه، عبد الرحمن[١] الفقيه المحدث، وسعد السمسار المتفقّه، انضم إلى الكتاتيب في نيسابور، وندبه أهله للعلم فتلقَّى على أفاضل البلدة التعليم الأولي، ثم التحق بدار السُّنة في نيسابور نفسها طالب علم مُجدٌّ، فأخذ عن علمائها سماعاً وإملاءً، وهو لا يزال في مقتبل العمر، لم يتجاوز الثانية عشرة[٢]، ودأب على تحصيل العلوم بنهم وجلد، فكلما أتيح له فرصة اللقاء بعالم أسرع إليه، يختار النخبة، وينتقي الفضلاء، ويشد الرحال فينتقل من مصر إلى آخر يتلقى عن الشيوخ، حتى أكثر منهم، وعُرِفَ بعلو السند، يقول عن شيوخه يرحمه اللّه: ولو أثبتُّ المشايخ الذين أدركتهم واقتبست عنهم هذا العلم يعني علم التفسير من مشايخ نيسابور وسائر البلاد التي وطئتها لطال الخطب، وملَّ الناظر.[٣] ومن شيوخه:

شيوخه:

---

(١) هو عبد الرحمن بن أحمد الواحدي،ثقة صادق معمر، أملى مجالس، توفي (٤٨٧ هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٨/ ٣٤٢ - والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي: ٥/ ١٠٤.

(٢) انظر أسباب النزول للواحدي: ٣٠٦- وسير أعلام النبلاء للذهبي: ١٨/ ٣٤٢.

(٣) انظر: البسيط للواحدي: المقدمة.

أبو إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي[١]، وأبو الفضل أحمد بن محمد العروضي الصفَّار[٢]، وغيرهم.[٣]

تبحَّر الواحدي في الفنون والعلوم، وأحرز ما عجز غيره عن تحصيله، فكان مفسراً واحدَ عصره في التفسير، وإمام علماء التأويل[٤]، أثنى عليه أهل الفضل من العلماء، نعته ابن قاضي شهبة بقوله: كان فقيهاً إماماً في النحو واللغة وغيرهما، شاعراً، وأما التفسير فهو إمام عصره.[٥]

وقال ابن خلكان[٦]: كان أستاذ عصره في النحو والتفسير.[٧]

---

(١) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري، شيخ التفسير، أحد أوعية العلم، صاحب التفسير، توفي (٤٢٧هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٧/ ٤٣٥ - وطبقات المفسرين للداودي: ١/ ٦٦.

(٢) هو أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن يوسف النيسابوري، شيخ النحو، وأديب نيسابور، توفي (٤١٦هـ). انظر: معجم الأدباء لياقوت: ٤/ ٢٦١ - وسير أعلام النبلاء للذهبي: ١٧/ ٣٨٩.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٨/ ٣٣٩ - وطبقات المفسرين للسيوطي: ٦٦.

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٨/ ٣٣٩ - وطبقات المفسرين للسيوطي: ٦٦.

(٥) انظر: طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: ١/ ٢٥٧.

(٦) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان البرمكي، أديب مؤرخ، صاحب أشهر المصنفات في التراجم، توفي (٦٨١ هـ). انظر: طبقات الشافعية للسبكي: ٥/ ١٤ - وشذرات الذهب لابن العماد: ٥/ ٣٧١.

(٧) انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان: ٣/ ٣٠٣.

ونقل الذهبي عن السمعاني قوله: كان الواحدي حقيقاً بكل احترام وإعظام لكن كان فيه بسط لسان في الأئمة. قال الذهبي: وهو لكونه قال في تفسير السلمي: ولو قال ذلك تفسيرُ القرآن لكفَّرته. قال الذهبي: الواحدي معذور مأجور.[١]

وقال غيرهم غير ذلك، فأجمع الجميع على إمامته، وقعد للتدريس وتخرج به طائفة من الأئمة، ولهذا شد طلبة العلم الرحال إليه زرافات ووحداناً، واعتكفوا بين يديه، يتلقون عنه سماعاً وإملاءً، وكان منهم أئمةأعلام ومن هؤلاء التلاميذ:

تلاميذه:

عبد الجبار بن محمد الخواري ت(٥٣٦هـ)[٢]، وعلي بن سهل بن العباس النيسابوري ت(٤٩١هـ)، وأحمد عمر بن عبدالله بن أحمد الأرغياني ت(٥٣٤هـ) وطائفة غيرهم.[٣]

وقد صنف الواحدي كثيراً، ورزق السعادة فيها، وأمتع الناس على

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٨/ ٣٤٢.

(٢) هو عبد الجبار بن محمد بن أحمد الخواري، ثقة خيِّر، توفي (٥٣٦هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ٢٠/ ٧١ - وطبقات السبكي: ٧/ ١٤٤.

(٣) انظر: طبقات المفسرين للداودي: ١/ ٣٩٤- وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: ١/ ٢٥٦.

حسنها، وذكرها المدرسون في دروسهم[١]، **ومن ذلك:**

البسيط في تفسير القرآن الكريم، والوسيط في تفسير القرآن المجيد، والوجيز في تفسير القرآن العزيز، قال الذهبي: وبتلك الأسماء سمى الغزالي تواليفه الثلاثة في الفقه.[٢]، وله أسباب النزول، وهو أعظم ما ألف في هذا الباب كما قال الزركشي[٣]،ورسالة في شرف علم التفسير، وشرح ديوان المتنبي (مطبوع). وغير ذلك.[٤]وبعد رحلة علمية مباركة دامت ما يقرب من سبعين عاماً توفي الواحدي، وانتقل إلى جوار ربه في شهر جمادى الأولى سنة (٤٦٨هـ) بعد أن عانى من مرض عضال ألمَّ به طويلاً.[٥]

---

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان: ٣/ ٣٠٣.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء: ١٨/ ٣٤٠.

(٣) انظر البرهان في علوم القرآن:

(٤) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٨/ ٣٤٠- وطبقات المفسرين للسيوطي: ٦٧- وللداودي: ١/ ٣٩٤.

(٥) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٨/ ٣٣٩ - ووفيات الأعيان لابن خلكان: ٣/ ٣٠٣ - وشذرات الذهب لابن العماد: ٣/ ٣٣٠- وينظر للمزيد في ترجمته: البداية والنهاية لابن كثير: ١٢/ ١١٤ - وسير أعلام النبلاء للذهبي: ١٨/ ٣٣٩ - وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي: ٣/ ٣٣٠ - وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبه: ١/ ٢٥٦- وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي: ٥/ ٢٤٠- وطبقات المفسرين للداودي: ١/ ٣٩٤- وطبقات المفسرين للسيوطي: ٦٦- وغاية النهاية لابن الجزري: ١/ ٥٢٣- والكامل في التاريخ لابن الأثير: ١٠/ ١٠١- ووفيات الأعيان لابن خلكان: ٣/ ٣٠٣. =

ثانياً: التعريف بالتفسير والمقدمة:

امتاز الواحدي بأنه الوحيد الذي صنَّف تفسير القرآن على ثلاث مراحل، مراعياً قدرات المتلقين عنه ومستوياتهم، وقد جاءت تفاسيره الثلاثة في قالب عكست بوضوح ثقافته الواسعة وإلمامه بالعلوم المتنوعة، كما أظهرت براعة يراعه.

ويغلب على الواحدي اهتمامه بالنقل والأثر، كما أعطى المصنف لإعمال الفكر مجالاً رحباً، فاستخرج كثيراً من دقائق المعاني، وصاغها بعبارة رصينة محكمة، زانها بالمأثور المنقول عن سلف الأمة.

وقد اخترت الوسيط من بين تفاسيره، لكونه ينحط عن درجة البسيط الذي تجر فيه أذيال الأقوال، ويرتفع عن مرتبة الوجيز الذي اقتصر على الإقلال، وهكذا عرَّف الواحدي الوسيط الذي أعفاه من التطويل وإكثار الأقوال، فجاء أسلم من خلل الوجازة والاختصار، وأتى على النمط الأوسط، والقصد الأقوم، حسنة بين السيئتين، ومنزلة بين المنزلتين، لا إقلال ولا إملال.[1]

والوسيط تفسير بالجزء، ويعد من التفاسير التي اهتمت بالأثر واللغة

=وترجم له الدكتور جودة محمد المهدي ترجمة وافية حقق فيها كثيراً من المسائل في كتابه: الواحدي ومنهجه في التفسير: ٥٥.

(١) انظر: الوسيط: ١/ ٥٠.

والنحو والغريب غير أنه لم يطنب في ذلك كما فعل في البسيط، كما أولى الواحدي المسائل الفقهية شيئاً من الاهتمام، وكذا أسباب النزول.

وطريقته أنه يذكر الكلمة القرآنية أو الجزء من الآية ثم يبدأ الحديث عنها من ناحية اللغة فيبين المراد والأصل اللغوي للكلمة، وقد يتكلم على نحوها ثم يسرد الأثر المحفوظ فيها ويتبعها بنقل أقوال السلف دون ذكر الأسانيد إلا نادراً، ويذكر ما استخرجه بإعمال الفكر.

هذا وللوسيط قدر واعتبار خاص عند أهل العلم فهو غاية في بابه، وقد حظي باهتمام بالغ من طلبة العلم، حتى أن السهروردي أبو النجيب المتوفى (٥٦٣هـ)[1] حفظه فقال: وحفظت وسيط الواحدي في التفسير[2].

وقد جاءت المقدمة مع خطبة الكتاب في ست صفحات، ولا تعد من المقدمات التي أولت علوم القرآن اهتماماً خاصاً، ولعل ذلك يعود إلى كون المصنف قد أفرد شيئاً من ذلك في تصانيف خاصة كأسباب النزول، والرسالة التي خصها لبيان شرف علم التفسير.

ثالثاً: عرض موضوعات المقدمة:

---

(١) هو عبد القاهر بن عبد الله بن محمد بن عمويه، أبو النجيب السهروردي، زاهد عابد من أعلام الصوفية، له مصنفات، وأملى مجالس، وأوذي وأهين في نهاية عمره، توفي (٥٦٣هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ٢٠/ ٤٧٥- وطبقات الشعراني: ١/ ١٤٠.

(٢) انظر: طبقات الشافعية للسبكي: ٧/ ١٧٥.

حمد المصنف اللّه القادر العليم، وصلى على نبيه الكريم وعلى آله وصحبه الأخيار، ثم بين أن العلم أشرف منقبة، وأجل مرتبة، وأن العلماء هم خواص عباد اللّه، وهم ورثة الأنبياء يحبهم أهل السماء، وساق لبيان ذلك أثران بسنده، أحدهما صحيح أخرجه البخاري والآخر فيه من هو ضعيف، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات[1].

عقب ذلك بيَّن أن أم العلوم الشرعية كتاب اللّه، وأن العلم بتفسيره وأسباب تنزيله ومعانيه وتأويله هو أشرف العلوم، وأن من شرفه أنه يعتمد على السماع والنقل من الشارع وممن شاهدوا التنزيل من الصحابة ومن جاء بعدهم من التابعين الذين جعلوا المصيب فيه برأيه مخطئاً، وأورد بسنده عن رسول اللّه ﷺ ما ورد من التحذير في القول بالرأي، وما يبين أن خير ما يتمسك به العبد هو كتاب اللّه وسنة نبيه ﷺ، إشارة إلى وجوب اعتماد ما ورد عن رسول اللّه ﷺ في التفسير وغيره، فهو يذكر المعنى ثم يورد ما يعضده من الأثر.

وختم المقدمة ببيان جهده في خدمة كتاب اللّه وما سبق أن صنفه في التفسير، ثم بيان غايته من الوسيط الذي أقدم عليه طالباً العون من اللّه.

وقد طبعت المقدمة مع التفسير طبعتان:

الأولى: على آلة النسخ، قدمت رسائل علمية إلى كلية أصول الدين -

---

(١) انظر: مجمع الزوائد للهيثمي: ١/ ١٢٦- والموضوعات لابن الجوزي: ١/ ٢٦٣.

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، لنيل درجة الماجستير.

والثانية: ظهرت مطبوعة في أربع مجلدات، بتحقيق مجموعة من الباحثين، صدرت عن دار الكتب العلمية في بيروت عام ١٤١٥هـ.

رابعاً: منهج الواحدي في تفسيره:

نهج الواحدي في مقدمته منهجاً واضحاً، فهو يذكر المسألة التي يريد عرضها بعبارته مبيناً رأيه، ثم يذكر أثراً في المعنى الذي أشار إليه، ذاكراً سنده في الرواية[١].

خامساً: بيان مدى التزام المصنف في تفسيره بما ذكره في مقدمته:

اشترط الواحدي على نفسه أن ينهج في تدوين تفسيره منهجاً متوسطاً، لا بالطويل الممل، ولا القصير المقل، يعفيه من إكثار الأقوال والتطويل، ويسلمه من خلل الوجازه والاختصار.

وهذا الشرط التزمه المصنف في تفسيره، وسار عليه باضطراد، ويظهر هذا الالتزام جلياً للناظر في تفسيري المصنف البسيط والوسيط[٢].

سادساً: مصادره:

---

(١) انظر أمثلة ذلك: ١/ ٤٥- ٤٧-٤٩.

(٢) انظر مثال ذلك في الوسيط: ١/ ١١٢-٢٤٧-٢٨١.

لم يذكر الواحدي مصدراً لمقدمته لكونه لم يذكر قولاً أو رأياً لغيره.

سابعاً: أهم الميزات وأظهر المآخذ:

لا يستطيع المرء أن يصنف مقدمة الوسيط للواحدي في المقدمات التي اهتمت بعلوم القرآن، فالمصنف ما أراد إلا التنبيه إلى بعض الأمور بشكل مختصر، لذا لا يمكن ذكر شيء من الميزات أو المآخذ.

obeikandl.com

٦- معالم التنزيل

لمحيي السنة أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي المتوفى سنة (٥١٦هـ)

أولاً: التعريف بالمؤلف:

مؤلف هذا التفسير هو: أبو محمد، الحسين بن محمد بن مسعود بن محمد المعروف بابن الفراء البغوي[١] الشافعي، المتوفى سنة (٥١٠هـ)[٢]، والذي لم تشر إليه معظم المصادر التي ترجمت له إلى سنة ولادته، غير أن ياقوت صاحب المعجم قال: إنه ولد سنة ٤٣٣هـ[٣]، كما ذكر الزركلي في الأعلام أن ولادته كانت عام ٤٣٦هـ[٤].

ولم تسعفنا المصادر التي وقفت عليها بشيء من المعلومات عن نشأة

---

(١) (البغوي) نسبة إلى (بغشور)- بضم الشين المعجمة، وسكون الواو، وراء- بليدة بين هراة ومرو الروذ من مدن خراسان، نسبوا إليها على غير القياس، وقيل (بغشور) اسم الولاية، واسم المدينة (بغ) انظر: معجم البلدان لياقوت: ١/ ٤٦٧-و وفيات الأعيان لابن خلكان: ٢/ ١٣٧- ومفتاح السعادة لطاش كبرى زادة: ٢/ ٩١.

(٢) اختلف في سنة وفاته، فقيل: إنه توفي سنة (٥١٥هـ)، وقال ابن خلكان: وقد رأيت في كتاب ((الفوائد السفرية)) التي جمعها الشيخ الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري أنه توفي سنة ستة عشر وخمس مئة. انظر: وفيات الأعيان: ٢/ ١٣٦.

(٣) انظر معجم البلدان لياقوت: ١/ ٤٦٧.

(٤) انظر الأعلام للزركلي: ٢/ ٢٥٩.

الإمام، ولا وضعت بين أيدينا أخباراً عن حياته زمن الطلب، ومزاحمة الركب، فهي الأخرى إذاً مرحلة مجهولة لنا، غير أننا نستطيع أن نعتقد بأن البغوي عاش حياته كغيره من طلبة العلم الذين تنقلوا بين حلقات العلم، يلتقون الشيوخ ويسمعون منهم، غير أنه كان مثابراً جاداً ذا نظر ثاقب، بشهادة العلماء المشهود لهم بالصلاح والعلم، وبأمارة المكانة التي تبوأها بين أهل العلم حتى حصلت له من الألقاب ما لم يحصل لغيره.

يقول الذهبي: كان عالماً، علامة، زاهداً، قانعاً باليسير، بورك في تصانيفه، ورزق فيها بالقبول التام، لحسن قصده، وصدق نيته[١].

وقال الحافظ ابن كثير: برع في التفسير والحديث والفقه، وكان علامة زمانه فيها[٢].

وقال السيوطي: كان من العلماء الربانيين،ذا تعبد ونسك وقناعة باليسير.[٣]وقال: كان إماماً في التفسير،إماماًفي الحديث،إماماً في الفقه.[٤]

وعن ابن الأهدل[٥]: هو صاحب الفنون الجامعة، والتصانيف

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٩/ ٤٣٩.

(٢)انظر: البداية والنهاية: ١٢/ ١٩٣.

(٣) انظر: طبقات الحفاظ للسيوطي: ٤٥٦.

(٤)انظر: طبقات المفسرين للسيوطي: ٣٨.

(٥) هو حسين بن عبد الرحمن بن محمد الحسيني العلوي ،مفتي الديار اليمنية،وشيخها بلا=

النافعة[١].

وقد نشأ البغوي شافعياًفي الفروع، سلفياً في الأصول، ولم يكن ليتعصب لرأي إمامه، بل كان يتبع الدليل والحجة، كما كان يدعو إلى الاعتصام بالكتاب والسنة،ولهذا عرف عن الإمام سلامة العقيدة، وقوة الحجة، ودقة العبارة، ووضوح المعنى، وكان لهذه السمات الأثر الكبير لدى العلماء حتى نعتوه بالإمام، وبشيخ الإسلام،وركن الدين،ومحيي السنة[٢].

عقيدته:

يعدُّ البغوي من أئمة السلف المتبعين للكتاب والسنة، والنصوص المبثوثة في ثنايا تآليفه إضافة إلى شهادة العلماء التي تشهد له على هذه الحقيقة،ومن هذه النصوص:

روي أن رسول اللّه ﷺ قال: « ما من قلب مؤمن إلا وهو بين إصبعين من أصابع رب العالمين، إذا شاء أن يُقيمَه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه

=مدافع،صنف كثيراً،ومن تصانيفه القول النضر على الدعاوى الفارغة بحياة الخضر، توفي (٨٥٥هـ).انظر: البدر الطالع للشوكاني: ١/ ٢١٨ -والأعلام للزركلي: ٢/ ٢٤٠.

(١)انظر: شذرات الذهب لابن عماد: ٤/ ٤٨.

(٢) لقب بـ«محيي السنة» وذلك حين صنف كتابه الشهير «شرح السنة» رأى رسول اللّه ﷺ في المنام وقال له: لقد أحييت سنتي بشرح أحاديثي.فلقب بمحيي السنة.

أزاغه.. »[1] الحديث.

قال البغوي في شرحه لهذا الحديث: والأصبع المذكور في الحديث صفة من صفات اللّه عز وجل وجل، وكذلك كل ما جاء به الكتاب أو السنة من هذا القبيل في صفات اللّه تعالى كالنفس، والوجه، والعين، واليد، والرجل،والإتيان،والمجيء،والنزول إلى السماء الدنيا،والاستواء على العرش، والضحك، والفرح.

إلى أن قال: فهذه ونظائرها صفات للّه تعالى، ورد بها السمع، يجب الإيمان بها وإمرارها على ظاهرها، معرضاًفيها عن التأويل، مجتنباً عن التشبيه، معتقداً أن الباري سبحانه وتعالى لا يشبه شيء من صفاته صفات الخلق، كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق، قال اللّه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وعلى هذا مضى سلف الأمة وعلماء السنة، تلقوها جميعاً بالإيمان والقبول وتجنبوا فيها عن التمثيل

---

(١) أخرجه البغوي عن النواس بن سمعان الكلابي، شرح السنة: ١/ ١٦٦، وأحمد في المسند: ٤/ ١٨٢.وأوردها السيوطي في الجامع الصغير بلفظ: بين أصبعين من أصابع الرحمن.وعزاه لأحمد وابن ماجه والحاكم، وحسنه.قال المناوي: وأخرجه النسائي في الكبرى عن عائشة،قال الحافظ العراقي: وسنده جيد.فيض القدير: ٥/ ٤٩٣. وقد أخرجه الحاكم في المستدرك: ١/ ٥٢٥و٤/ ٣٢١وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.وأقره الذهبي.

والتأويل[١].

كما امتلأ تفسير المصنف بالأقوال التي انتصر فيها لمذهب أهل السنة والجماعة وتصدى لأهل البدع والأهواء.[٢]

شيوخه وتلاميذه:

أخذ البغوي العلم عن ثلة من العلماء البارزين، والشيوخ المجيدين في صنوف العلم المعتبرة، في بلاده وخارج دياره، ومن هؤلاء:

القاضي حسين بن محمد المَروَرُّوذِي،وقد تفقه عليه البغوي قبل عام (٤٦٠هـ)[٣]، وأبو بكر يعقوب بن أحمد النيسابوري[٤]، وأبو تراب عبد

---

(١)انظر: شرح السنة: ١/ ١٦٨.

(٢)ينظر تفسير قوله تعالى ﴿لا تدركه الأبصار﴾[الأنعام: ١٠٣]، وقوله تعالى ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾[يونس: ٢٦]، وقوله﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾[القيامة: ٢٢]

(٣)هو القاضي حسين بن محمد بن أحمد المروذِي، وقيل: المروَرُّوذِى ، شيخ الشافعية بخراسان، قيل: كان من أنبل شيوخ محيي السنة، توفي (٤٦٢هـ)٠ انظر: سير أعلام النبلاء: ١٨/ ٢٦١ - و١٩/ ٤٤٠ - وطبقات المفسرين للداودي: ١/ ١٦١.

(٤)هو يعقوبُ بنُ أحمد بن محمد الصيرفي النيسابوري ، الشيخ الرئيس الثقة المسند، قال الذهبي: كان صحيح الأصول. توفي (٤٦٦هـ) انظر: سير أعلام النبلاء: ١٨/ ٢٤٥ - و١٩/ ٤٤٠ - وشذرات الذهب: ٣/ ٣٢٥.

الباقي المراغي، مفتي نيسابور[١]، وغير هؤلاء كثير[٢].

أما تلامذة البغوي فهم أيضاً كُثر، نذكرمنهم:

أبو منصور محمد بن أسعد بن العطاري ت (٥٧١هـ)[٣]، وأبو المكارم فضل اللّه بن أبي سعيد النَّوقاني[٤]، وغيرهما.

مؤلفاته:

ترك الإمام البغوي آثاراً مفيدة من علوم التفسير والحديث والفقه، وامتازت مؤلفات المصنف بسهولة العبارة، وقوة الدليل وصحته، وإسقاط الحشو والتطويل، ومن تلك المصنفات:

---

(١)هو عبدُ الباقي بن يوسف بن علي المراغي الشافعي، إمام فقيه قدوة، عُرف عنه حب النفع للخلق، توفي (٤٩٢هـ). انظر: سير أعلام النبلاء: ١٩/ ١٧٠ - و١٩/ ٤٤٠ - وشذرات الذهب: ٣/ ٣٩٨.

(٢)ينظر: سير أعلام النبلاء: ١٩/ ٤٤٠.

(٣) هو محمد بن أسعد بن محمد بن الحسين العطاري المعروف بجَفَدة، فقيه واعظ، سمع من البغوي تفسيره وشرح السنة وكتبهما، توفي (٥٧١هـ) . انظر: سير أعلام النبلاء: ٢٠/ ٥٣٩و ١٩/ ٤٤٠ - وطبقات المفسرين للداودي: ١/ ١٦١.

(٤) هو فضل اللّه بن محمد بن أحمد النوقاني الشافعي، فقيه عالم، أخذ له والده من محيي السنة إجازة بمروياته، توفي (٦٠٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء: ٢١/ ٤١٣ - و١٩/ ٤٤٠ - وطبقات المفسرين للداودي: ١/ ١٦١.

١) التهذيب في فقه الشافعية، وهو من الكتب المحررة والمعتمدة عند الشافعية، نقل النووي منه مراراً في الروضة[١].

٢) معالم التنزيل: وهو تفسيره المشهور الذي نحن بصدد الحديث عنه.

٣) شرح السنة: وهومن أجلِّ شروح السنة التي وصلت إلينا، انتقى المؤلف الأحاديث التي شرحها بدقة تامة، وأولى هذا الكتاب عناية خاصة، فجاء مليئاً بالفوائد.

٤) مصابيح السنة: ضمن المصنف هذا الكتاب مجموعة من الأحاديث الصحاح والحسان، وعنى بالصحاح الأحاديثَ التي أخرجها البخاري ومسلم، وبالحسان التي أخرجها أصحاب السنن، وقد حذف الأسانيد.

٥) الأنوار في شمائل النبي المختار-ﷺ[٢].

٦) مجموعة من الفتاوى الفقهية: سأل عنها شيخَه أبا علي المروزي[٣].وغيرها.

وفاته:

---

(١) انظر: روضة الطالبين وعمدة المفتين للنووي: ١/ ٩.

(٢) انظر: كشف الظنون: ١/ ١٩٥ - والرسالة المستطرفة للكتاني: ١٠٥.

(٣) انظر: شرح السنة: ١/ ٢٩ - وطبقات المفسرين للداودي: ١/ ١٦١.

توفي رحمه اللّه تعالى بمرو في شهر شوال سنة ست عشرة وخمس مئة للهجرة (٥١٦هـ)، على الراجح من أقوال أهل العلم[١].

ثانياً: التعريف بالتفسير والمقدمة:

أثنى شيخ الإسلام ابن تيمية على تفسير البغوي حين سئل يرحمه اللّه عن أقرب التفاسير إلى الكتاب والسنة: الزمخشري أم القرطبي أم البغوي؟ وكانت إجابته أن: (أسلمها من البدعة والأحاديث الضعيفة البغوي، لكنه مختصر من تفسير الثعلبي، وحذف منه الأحاديث الموضوعة، والبدع التي فيها، وحذف أشياء غير ذلك)[٢]. وقال: صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة.[٣]

وقد ألف البغوي تفسيره هذا استجابة لجماعة من أصحابه المخلصين

---

(١) انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان: ٢/ ١٣٦.

وللمزيد في ترجمته ينظر: البداية والنهاية للحافظ ابن كثير: ١٢/ ١٩٣ - وسير أعلام النبلاء للذهبي: ١٩/ ٤٣٩- ٤٤٠ - وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي: ٤/ ٤٨ - وطبقات الحفاظ للسيوطي: ٤٥٦- وطبقات الشافعية للسبكي: ٧/ ٥٧- وطبقات المفسرين للداودي: ١/ ١٦٠ - وطبقات المفسرين للسيوطي: ٣٨- ومرآة الجنان لليافعي: ٣/ ٢١٣ - ومفتاح السعادة لطاش كبرى زاده: ٢/ ٩١ و٢/ ١٢٩ - ووفيات الأعيان لابن خلكان: ٢/ ١٣٦.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٣١/ ٣٨٦.

(٣) انظر: مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية: ٧٦.

الذين طلبوا إليه تفسيراً لكتاب اللّه. فصنف هذا التفسير الذي جاء متوسطاً بين الطويل الممل، والقصير المخل.

كما صرح المصنف بأن ما ضمنه هذا التفسير ليس زيادة على من سبقوه من المفسرين،ولا إضافةً إلى ما قدموه، ولكنه جاء تلبية لحاجة زمانه من التجديد الذي طال به العهد، وتنبيهاً للمتوفقين، وتحريضاً للمتثبطين[١].

وقد جاء هذا التفسير الذي هو في الأصل مختصر لتفسير الثعلبي في أجمل صورة، وأحلى زينة، فكان - على حد قول الخازن - من أجلِّ المصنفات في علم التفسير وأعلاها وأنبلها وأسناها، جامعاً للصحيح من الأقاويل، عارياً عن الشبه والتصحيف والتبديل، محلى بالأحاديث النبوية مطرزاً بالأحكام الشرعية، موشىً بالقصص الغريبة، وأخبار الماضين العجيبة، مرصعاً بأحسن الإشارات، مخرجاً بأوضح العبارات، مفرغاً في قالب الجمال بأفصح مقال[٢].

هذا وقد طعن البعض في هذا التفسير الجليل، وأفاد بأنه يوجد فيه من المعاني والحكايات ما يحكم بضعفه أو وضعه[٣]. وهو ما يفهم من ظاهر

---

(١) ينظر مقدمة التفسير: ١/ ٣٣.

(٢) انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن: ١/ ٣.

(٣) انظر: الرسالة المستطرفة للكتاني: ٧٨، يقول الدكتور محمد إبراهيم شريف: لقد نقل الذهبي هذه العبارة من الكتاني، وتبعه الشيخ د/ عبد اللّه شحاته في كتابه تاريخ القرآن والتفسير؛ انظر: البغوي الفراء وتفسيره للقرآن الكريم: ١٠٤.

تلك الجملة الموهمة التي أطلقها الخازن قبل قليل، والتي تفيد بأن البغوي جاء في تفسيره بالقصص الغريبة التي لا أصل لها.

وهو زعم باطل في رأي بعض الدارسين[1]، الذين يرون أن الناس قد تلقوا هذا التفسير بقبول حسن، وأن أرباب الصناعة قد شهدوا له بالإعجاب والتقدير، وأن ما لقيه من الرواج والانتشار بين أهل العلم ينفي عنه هذه التهمة.

والحق والتفسير بين أيدينا يشهد على البغوي أنه أورد بعض الإسرائيليات التي نص أئمة الحديث على أنها أخبار موضوعة، كالذي أورده في قصة هاروت وماروت، ولا يعفيه من المسؤولية - وهو المفسر المحدث -أنه تابع في ذلك ما جاء في كتب التفسير بالمأثور، وإن كان تفسيره أسلم في هذا من غيره.

---

(١) أشار الدكتور محمد إبراهيم الشريف إلى أنَّ البغوي الذى عناه الكتاني في رسالته هو بغوي آخر غير محيي السنة واسمه عبد الله بن محمد، المعروف بالبغوي الكبير وأن المعنيَّ توفي سنة (٣١٧هـ) وأورد نص الكتاني وتوصل منه إلى ما أقره من نفي هذه الشبهة وردِّها. انظر: البغوي الفراء وتفسيره للقرآن: ١٠٤.

قلت: كلام الكتاني هو عن التفسير المسمى «معالم التنزيل» ومعروف أنه للبغوي محيي السنة، ولا نعلم للبغوي الكبير تفسيراً بهذا الاسم، وإنما جاء الخطأ من الكتاني الذى نسبه للبغوي الكبير، ثم إن تفسير البغوي «معالم التنزيل» موجود بين أيدينا يشهد له أو عليه.

مهما يكن الأمر فإن ما جاء من هذا القبيل في هذا التفسير هو أقل بكثير مما جاء في غيره من التفاسير السابقة عليه واللاحقة. كما أن ما جاء فيه لا ينقص من قدره وقيمته، لكونه لا يذكرها في مناط الجزم والاعتماد لتوجيه الآية، ولكون رواية الإسرائيليات المسكوت عنها أمر لا حرج فيه.

وامتاز تفسير البغوي بسهولة العبارة بعيداً عن التكلف والتطويل،ثم الاعتماد على أحسن الطرق في التفسير وهو التفسير بالمأثور، كما يلاحظ أن تفسيره قد امتلأ بالمواطن التي انتصر فيها المصنف لأهل السنة والجماعه، فهو لهذا يعد واحداً من التفاسير الهامة التي تحوي آراء أهل السنة.

وقد قدم البغوي تفسيره بمقدمة مختصرة، بين فيها منهجه في الكتابة ودواعي التأليف، كما ذكر مصادره من كتب التفسير بالمأثور وكتب الأخبار والسير والقراءات والحديث، وعقد فصولاً لبعض موضوعات علوم القرآن.

قدم الإمام البغوي لتفسيره مقدمة استغرقت أربع عشرة صفحة من القطع الكبير، بين فيها الدواعي إلى تأليف هذا التفسير، كما بين فيها مصادره من الصحابة والتابعين وأئمة السلف، وتعرض لثلاثة موضوعات من موضوعات علوم القرآن، وأفردها بالحديث، وجعل كل موضوع في فصل مستقل، وهي:

١) فضائل القرآن وتعليمه.

٢) فضائل تلاوة القرآن.

٣) وعيد من قال في القرآن برأيه من غير علم.

كما تعرض لبيان معنى التفسير والتأويل، ونزول القرآن على سبعة أحرف.

وقد انتخب المصنف لكل موضوع جملة من الآثار، ولم يكثر منها، وأوردها بأسانيده، وذكر من خرجها من الأئمة، وبين حكمها ودرجتها.

وقد طبعت بعدد طبعات الكتاب، نذكرمنها:

١) طبعة حجرية عام ١٢٨٥ هـ، مكونة من أربعة أجزاء، عليها بعض التعليقات.

٢) طبع على هامش تفسير ابن كثير في تسعة مجلدات، بمطبعة المنار بمصر عام ١٣٤٣هـ.

٣) طبع على هامش تفسير الخازن في أربعة مجلدات عام ١٣٧٥هـ.

٤) طبع طبعة جيده بتحقيق الأستاذين: خالد بن عبد الرحمن العك، ومروان سوار، ونشر دار المعرفة - بيروت - لبنان عام ١٤٠٦هـ.

٥) طبع طبعة ممتازة، ومن أفضل طبعات الكتاب بتحقيق الأساتذة: محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش،

obeikandl.com

ونشرته دار طيبة بالرياض عام ١٤٠٩هـ.

ثالثاً- عرض موضوعات المقدمة:

استهل المصنف مقدمته بحمد اللّه والثناء عليه، والصلاة والسلام على نبيه وصفيه محمد ﷺ خاتم النبيين، ثم وضّح مهمة الرسول ﷺ، وإنزال الكتاب عليه الذي كان به الإعجاز والتحدي للخليقة أجمع، لذا كان في اتباعه النجاة وفي الإعراض عنه الخسارة والضياع، وبيّن ما اشتمل عليه القرآن الكريم من أمور العقيده والفقه والقصص والأمثال، والذي يفهم بمعرفة تفسيره.

وأشار إلى أن السابقين قد بذلوا جهوداً مباركة في تفسير كتاب اللّه، وألفوا الكتب لبيان علومه وفنونه، ثم نقل لنا دواعي تأليفه لهذا التفسير وأجملها في أمرين:

الأول: استجابة لجماعة من أصحابه من طلبة العلم، ويقول في ذلك: فسألني جماعة من أصحابي المخلصين، وعلى اقتباس العلم مقبلين كتاباً في معالم التنزيل وتفسيره، فأجبتهم إليه معتمداً على فضل اللّه تعالى وتيسيره...[1]

الثاني: اقتداء بأئمة السلف الذين رأوا في تقييد العلم بالكتاب إبقاء للخلف.

---

(١) انظر: مقدمة معالم التنزيل: ١/ ٣٤.

ثم صرح بأنه اختار لتفسيره طريقة بين الطويل الممل والقصير المخل، فجاء متوسطاً كما أراد.

بعدها بيَّن المصنف أن التعبد يكون بتلاوة الكتاب كما يكون باتباع أحكامه، على أن تكون التلاوة وفق رسم المصحف الإمام الذي اتفقت الصحابة عليه وأن لا تتجاوز بأية حال قراءة أحد القراء المعروفين الذين خلفوا الصحابة والتابعين واتفقت الأئمة على اختياراتهم وإمامتهم وذكر أسانيدهم في القراءة.

وقبل أن يتعرض لموضوعات علوم القرآن الثلاثة التي قدمها بين يدي تفسيره، بيَّن منهجه في الاستشهاد بالأحاديث والآثار النبوية.

الفصل الأول: فصل في فضائل القرآن وتعليمه:

اكتفى المصنف في هذا الفصل بسوق مجموعة من الآثار الدالة على فضل القرآن بأسانيده، مع عزوها إلى من أخرجها من أئمة الحديث في مصنفاتهم، ولم يشأ المصنف بيان النصوص المشكلة، ولا شرح غريبها على عادة العلماء، وهو منهج اتخذه في الفصول اللاحقة أيضاً.

الفصل الثاني: فصل في فضائل تلاوة القرآن:

كان من حق هذا الفصل أن يدمج مع سابقه غير أن المصنف فصل بينهما، فأورد في هذا الفصل تسعة آثار ساقها بسنده بينَتْ فضل تالي القرآن، وما ينتظره من الأجر والمثوبة، ولم أرَ مسوغاً لصنيع المصنف هذا

بفصل الموضوعين وهما موضوع واحد، ولهذا أدمجهما الخازن في تفسيره.

الفصل الثالث: فصل في وعيد من قال في القرآن برأيه من غيرعلم:

ثلاثة آثار هي التي أوردها المصنف ليبين الوعيد الشديد الذي ورد في حق المتقوِّل على كتاب اللّه برأيه، كما ذكر أثرين عن الصحابة يؤكدان ما أحدثه الوعيد الوارد من الخشية في نفوس الصحابة حتى أحجموا عن خوض هذا المضمار.

ولأن المصنف يرى جواز التأويل في كتاب اللّه، وخشية أن يلتبس ذلك بالقول في القرآن بالرأي أشار المصنف إلى أن التأويل لا يدخل تحت هذا الوعيد، كما بين معنى التفسير بأنه الكلام في أسباب نزول الآية ونشأتها وقصتها، وأن ذلك يكون بالسماع بعد ثبوته بالنقل.

وختم الفصل بسوق الأثر الذي رواه عبد اللّه بن مسعود -رضي الله عنه- عن رسول اللّه ﷺ والذي يبين نزول القرآن على سبعة أحرف وأن لكل آية ظهر وبطن، وحد ومطلع. كما ذكر اختلاف العلماء في تأويلهم للظهر والبطن والحد والمطلع.

رابعاً- منهج البغوي في مقدمته:

منهج البغوي في المقدمة أنه يبدأ الفصل بسرد الآثار التي اختارها مما يليق بموضوع الباب، وذلك بذكر الأثر بإسناده إلى رسول اللّه ﷺ. ثم يبين من أخرجه من الأئمة في الغالب، وإن كان المخرج قد قال فيه مقولة، نقله،

أو حكماً أورده، وإلا حكم هو على المروي بالصحة أو الغرابة أو غير ذلك - في الغالب - أيضاً. وقد يترك الرواية دون أن يذكر من خرجها من الأئمة، وفي الغالب يكون له أصل أو شاهد قوي في الصحيح.

وقد أعفى البغوي نفسه تتبع الغريب من الألفاظ بالبسط والشرح، ولهذا لم نجده وقف عند لفظة غريبة، وهو الأمر الذي دعا الخازن - مختصِر الكتاب - إلى استدراكه، واستبدال الغريب بالأسانيد، وكأن البغوي استغنى عن شرح الغريب لكونه قد خصص لذلك كتابه الحافل الجامع شرح السنة.

هذا ولم يخرج البغوي عن هذه القاعده في مقدمته إلا عند حديثه عن الحد والمطلع، والظهر والبطن، حيث بيَّن اختلاف أهل العلم في تفسير هذه الألفاظ[1].

خامساً- بيان مدى التزام البغوي في تفسيره بما ذكره في مقدمته:

بيَّن البغوي منهجه الذي انتهجه في تفسيره، فوصفه بالتوسط والاعتدال في ذكر الأقوال وبسطها، والإعراض عن ذكر المناكير من الأحاديث والآثار، وما لا يليق بحال التفسير، والاكتفاء بما ثبت في الكتب

---

(١) ينظر أمثلة المنهج في: ١/ ٣٨-٣٩.

المسموعة للحفاظ وأئمة الحديث،كما تعهد المصنف بذكر القراءات القرآنية للقراء المشهورين واختياراتهم.

وهي ضوابط التزمها المصنف في تفسيره على العموم، فالقارئ في معالم التنزيل يجد البغوي قد تحاشى مثلاً النكات البلاغية، والمباحث اللغوية،إلا ما كان ضرورياً منها لإجلاء المعنى[١]،ويجده تجنب ذكر ما ولع به أصحاب المطولات في التفسير كالرازي وغيره من المباحث التي لاصلة لها بعلم التفسير.

كما يلاحظ أن المصنف قد أورد أقوال العلماء في بيان معنى الآية، واقتصد في ذلك، وذكر الاختلاف من غير إطالة في الغالب، ولا ترجيح[٢].

وكذا التزامه بذكر القراءات، فهو يتعرض للقراءات من غير إسراف منه في ذلك[٣].

أما ما ذكره من الالتزام بالإعراض عن المناكير، والاعتماد على الثابت عند الحفاظ، فقد التزمه إلى درجة كبيرة، وإن كان قد وقع في شيء

---

(١) انظر مثال ذلك: ١/ ١٦٠ -١٨١.

(٢) انظرمثال ذلك: ١/ ١٢١ - ٢٧٩.

(٣) انظر مثال ذلك: ١/ ١١٧ -٢١٢-٢٥٨-٣٣٦.

منها، فذكر بعض الإسرائيليات دون أن يعقب عليها، أو يبين ما فيها[١].

سادساً- مصادر البغوي في مقدمته:

رغم التزام البغوي بالنهج الذي انتهجه من رواية الأحاديث والآثار بأسانيده إلى رسول الله ﷺ، فقد ذكر من خرج الروايات التي ساقها من الأئمة في كتبهم، وهي وإن كانت لا تعد مصادر للبغوي لكونه لم يعتمد عليها غير أن ذكره لها، واعتماده حكم أصحابها يجعلنا نعدها بمثابة مصادره في المقدمة وهي:

١) صحيح البخاري[٢].

٢)صحيح مسلم[٣].

٣) سنن الترمذي[٤].

سابعاً- مزايا المقدمة والمآخذ عليها:

لا يستطيع المرء اعتبار مقدمة البغوي هذه مقدمة في علوم القرآن

---

(١) انظر مثال ذلك: ١/ ٢٩٨ - ٣٠٢.

(٢) انظر مثاله صفحة: ١/ ٣٩-٤٢.

(٣) انظر مثاله صفحة: ١/ ٤١.

(٤) انظر مثاله صفحة: ١/ ٣٩-٤١.

بالمصطلح المعروف، وذلك لكونه لم يقدم لنا إلا أحاديث بعدد انتقاها ليؤكد على أهمية تلاوة كتاب اللّه، وفضل التلاوة والتعليم، والنهي عن التفسير بالرأي ليؤكد به أن ما نهجه من التفسير بالأثر هو المطلوب والسالم عن المعارضة، فهو لم يتعرض لموضوعات هامة في علوم القرآن،كما أنه لم يفصل -ولو بقدر - في الموضوعات الثلاثة التي تعرض لها، ولهذا فإننا لا نستطيع أن نحكم على هذه المقدمة فنذكر ما لها من المزايا،أو عليها من المآخذ اكتفاء بما سبق من الحديث عنها.

obeikandl.com

٧- المحرر الوجيز في تفسير كتاب اللّه العزيز[١]

لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي المتوفى سنة(٥٤٦)هـ

أولاً: التعريف بالمؤلف:

مصنف هذا التفسير الجليل هو القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن عبد الرؤوف بن تمام بن عبد اللّه بن تمام ابن عطية بن خالد بن عطية المحاربي الداخل[٢]،المولود سنة(٤٨١هـ).

وينحدر المصنف-رحمه اللّه-من سلالة عربية أصيلة،فقد كان جدهم جندياً من جنود الفتح الإسلامي للأندلس،وهو عطية بن خالد بن خفاف

---

(١) إطلاق هذه التسمية على التفسير ليس من صنيع ابن عطية-يرحمه اللّه -بل جاء متأخراً،فقد ذكر المترجمون أن له تفسيراً جيداً، غير أنهم لم يسموه،كما أن المصنف لم يسمه،وهذه التسمية التي عرف بها التفسير،أطلق جزءاً منها لسان الدين الخطيب ت(٧٧٦هـ)فقال: (الوجيز)،ثم جاء ملا كاتب جلبي ت(١٠٦٧هـ)فأطلق عليه اسم الوجيز في تفسير الكتاب العزيز،اقتبسها من قول المصنف في مقدمته: وقصدت فيه -أي في التفسير -أن يكون جامعاً وجيزاً محرراً.هذا وقد عالج الأستاذ عبد الوهاب فايد هذه التسمية معالجة علمية.انظر: مختصر الإحاطة: ٢/ ١٦٥-وكشف الظنون: ٢/ ١٦١٣- ومنهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم للدكتور عبد الوهاب فايد: ٨٢.

(٢) انظر: فهرس ابن عطية: ٥٩-والصلة لابن بشكوال: ٤٣١تحقيق عزت العطار.

المحاربي،نازل قرية (قشتالة)[١].أنسل-كما يقول ابن فرحون-كثيراً لهم قدر وفيهم فضل[٢].وعن ابن خاقان قوله في أحد رجالات هذه الأسرة: نشأ في بيئة كريمة،وأرومة من الشرف غير مرومة،لم يزل فيها على وجه الزمان أعلام علم،وأرباب مجد ضخم،قد قيدت مآثرهم الكتب،وأطلقتهم. التواريخ كالشهب [٣].

نشأ ابن عطية في كنف أبيه،وتربى منذ الصغر على تعاليمه وتوجيهاته،محيطاً بعنايته،وفر له-رحمه اللّه-أسباب الراحة،ويسر له النجاح،فاجتمعت الرعاية الحسنة وصدق التوجه وقوة العزيمة،مع سلالة الأرومة،حتى سعى لطلب العلم منذ اليفاعة ولازمه هذا الطموح حتى برزت مواهبه،وغدا شخصية علمية يشار إليها بالبنان،فكان رحمه اللّه يتوقد ذكاءً، سابق الأمجاد فاستولى على الأمد بغلابة،ولم ينض ثوب شبابه،أدمن التعب في السؤدد جاهداً حتى تناول الكواكب قاعداً[٤].

سما إلى رتبة الكهول صغيراً،وشنَّ كتيبة ذهنه على العلوم

---

(١)انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب: ١/ ١٣٣.

(٢) انظر الديباج المذهب لابن فرحون: ١٧٤ ط عباس بن شقرون، عام ١٣٥١م.

(٣) انظر: قلائد العقيان لابن خاقان: ٢١٦.

(٤) انظر: المراجع السابق: ٢١٧.

مغيراً،فسباها معناً وفضلاً،وحواها فرعاً وأصلاً.[١]

ويرجع نبوغ المصنف إلى الاهتمام العظيم الذي أولاه والده-رحمه الله كما ذكرنا قبل قليل-فقد كان من علماء غرناطة المعتبرين،والمشهود لهم برسوخ القدم في العلوم الشرعية،دفع بولده إلى حلقات العلم المنتشرة في أنحاء المدينة العامرة،كما كانت لحلقات والده،وأرتال الطلبة في غدو ورواح،متناوبين لحضور تلك الحلقات،ووالده يتوسطهم يعلم ويربي ويوجه،كان لهذا المشهد البديع أثره الكبير في نفس ابن عطية،وشغوفه بالعلم،حتى دفعه هذا الهيام إلى الانخراط في ذلك الجمع المبارك،حتى فاق أقرانه، يتصيد العلماء الواردين على غرناطة وينتقيهم،فما أن يسمع بوجود أحدهم في المدينة حتى يعزم لقاءه،والتلقي عنه،وقد روي أن محمد عبد العزيز بن عبد الوهاب القيرواني،دخل غرناطة،وكان عالي الرواية،قديم السماع،فأسرع إليه ابن عطية حين علم بوجوده،رغم صغر سنه،وطلب الإجازة،وحين رآه الشيخ أهلاً كتب له بخطه إجازة علمية[٢].وكذا فعل مع غير واحد كالحافظ أبي علي الغساني،وغيره.[٣]

كما كان لترحاله في أنحاء الأندلس طالباً للعلم، دور في علو قدره،

---

(١) انظر: نفح الطيب للمقري: ٣/ ٢٧٩.

(٢) انظر: فهرس ابن عطية: ٩٤.

(٣) ينظر فهرس ابن عطية فهو مليء بمثل هذه الروايات.

فمن لم يلتق به في غرناطة من العلماء شد الترحال إليه حيث وُجد من ديار الأندلس،قصد أرباب العلم في كافة عواصم الأندلس وحواضرها، مثل قرطبة وأشبيلية ومرسية وبلنسية وغيرها،وكان في ذلك عوضاً له من الترحال إلى المشرق الذي كان يومها مصدر إشعاع حضاري في كثير من العلوم.[١]

مكانته العلمية:

كان ابن عطية-رحمه اللّه-فقيها عالماً بالتفسير والأحكام،محدثاً عالي السند،لغوياً عارفاً بالنحو والأدب، مقيداً حسن التقييد،له نظم رائق،ونثر محكم رصين، ولي القضاء بالمرية، فكان غاية في الدهاء والذكاء، والتهمُّم بالعلم، سري الهمة في اقتناء الكتب[٢].

وكان رحمه اللّه من الرجال البارزين الذين أسهموا إسهاماً فعالاً في نشر العلم في ديار الأندلس حتى قال عنه السيوطي: هو الإمام الكبير،قدوة

---

(١) يعلل بعضهم عدم توجه ابن عطية للمشرق طالباً للعلم انشغاله-يرحمه اللّه- بالجهاد والدفاع عن ديار الأندلس،حيث كانت مهددة بالسقوط آنذاك،[انظر: منهج ابن عطية في تفسير القرآن العظيم للدكتور عبد الوهاب فايد: ٥٥]ويدل على ذلك أن المصنف-يرحمه اللّه- قد اشترك في عدة غزوات،ودافع عن الديار،كما أن لبعض شعره وقصائده ورسائله إلى الملوك والأمراء دوراً عظيماًفي تثبيت الهمم.

(٢) انظر: الإحاطة للسان الدين بن الخطيب: ٣/ ٥٣٩-والديباج المذهب لابن فرحون: ١٧٤.

المفسرين.[١]

وقال صاحب البحر المحيط أبو حيان عنه وعن الزمخشري: إنهما أجل من صنف في علم التفسير، وأفضل من تعرض للتنقيح فيه والتحرير،وقد اشتهرا ولا كاشتهار الشمس.

إلى أن قال: وفي خطبتيْ كتابهما وفي غضون كتاب الزمخشري ما يدل على أنهما فارسا ميدان، وممارسا فصاحة وبيان.

ويتابع فيقول: إذ هذان الرجلان هما فارسا علم التفسير،وممارسا تحريره والتحبير، نشراه نشراً،وطار لهما به ذكراً،وكانا متعاصرين في الحياة،متقاربين في الممات.[٢]

وقال ابن عاشور عنه وعن الزمخشري: كلاهما عضادتا الباب،ومرجع من بعدهما من أولي الألباب.[٣]

ويقول ابن خاقان[٤]: فيه نبعة روح العلا،ومحرز ملابس الثنا،فذ الجلالة،وواحد العصر والأصالة، وقَّار كما رسا الهضب،وأدب كما اطَّرد السلسل العذب،أثره في كل معرفة، علمٌ في رأسه نار،وطوالعه في آفاقها

---

(١) انظر: بغية الوعاة للسيوطي: ٢٩٥.

(٢)انظر: البحر المحيط لأبي حيان: ١/ ٢٠-٢١.

(٣) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور: ١/ ١٦.

صبح ونهار[١] [٢]

إن هذه النصوص توكد المنزلة العلمية،والمكانة المرموقة التي شغلها ابن عطية _رحمه اللّه_ كما أن تفسيره وهو شاهد بين أيدينا، خير دليل على نبوغ المصنف،وما اتكال جل المفسرين من بعده عليه،مع الإكثار من الاستشهاد بنصوصه،وترجيح اختياراته إلا تعزيزلتلك المكانة.[٣]

شيوخه وتلاميذه:

يعد العلماء المعتبرين ابن عطية من أعيان غرناطة،وعلماً من أعلامها البارزين في القرن السادس الهجري،خاصة في علم التفسير،ومن كبار العلماء الذين صدرتهم الأندلس الحبيب،ولا شك أن استحق هذا الثناء أن يكون من الواردين على أكثر من نبع يتلقى العلم ويتضلع منه،كما كان لدور والده أثر كبير في كثرة شيوخه،وعلو مكانتهم،ولهذا فلا غرو أن نجد من بين شيوخ ابن عطية من اشتهر بالعلم والفضل،وعلو الكعب،وسمو القدر،ومن قصدهم الغريب البعيد،وفهرس شيوخه الذي أعده وضمنه

---

(١) هو الفتح بن محمد بن عبيد اللّه بن خاقان ،كاتب مؤرخ،من أذكياء الأدباء،كثير الأسفار،كان لعاباً مستهتراً،له قلائد العقيان،توفي مقتولاً(٥٣٥هـ).انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان: ٤/ ٢٣-الأعلام للزركلي: ٥/ ١٣٤.

(٢) انظر: البحر المحيط لأبي حيان: ١/ ٢٠.

(٣) سيرد مزيد من النصوص عند الحديث عن تفسيره بمشيئة اللّه.

أسماءهم دليل وشاهد على ما ذكرنا.

كما كان للطرق التي تتبعها المصنف في تحصيل العلوم الأثر الواضح في كثرة الشيوخ،والإفادة منها،فقد تلقى العلم -يرحمه اللّه-سماعاًوقراءة ومناولة وإجازة،حتى بلغ عدد شيوخه الذين هم من أهل الذروة في العلم،في شتى ميادينه تفسيراً وحديثاً وأدباً ولغةوفقهاً وغيرها، أكثر من ثلاثين شيخاً،ضمنهم فهرسه،**ومن هؤلاء:**

والده الإمام غالب بن عطية[1]،والحسين بن محمد الغساني[2]،وغيرهم كثير ينظر فهرس ابن عطية للوقوف عليهم.

أما تلاميذه:

فكثيرون بلا شك تلقوا العلم عن المصنف،منهم المواظبون علىمدرسة أبيه_رحمه اللّه_ حيث تلقوا عنه أمداً من الزمن، ومنهم الذين شاركوا المصنف في ساحات الجهاد، وأسفار الغزو، كما أن الأمراء الذين

---

(١) هو غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي ،إمام ناقد مجود،حافظ للحديث وطرقه وعلله،عارف بالرجال، له اهتمام بالأدب والشعر،توفي(٥١٨هـ).انظر: قلائد العقيان لابن خاقان: ٢١٥-وسير أعلام النبلاء للذهبي: ١٩/ ٥٨٦.

(٢)هو الحسين بن محمد بن أحمد الغساني الجياني،حافظ حجة ناقد أديب شاعر،محدث الأندلس في عصره،مصنفاته كثيرة منها تقييد المهمل،توفي(٤٩٨هـ).انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٩/ ١٤٨_وتذكرة الحفاظ للذهبي: ٤/ ١٢٣٣_والصلة لابن بشكوال: ١٤٢.

عرفوا قدره،وكانوامحبين للعلم سمعوا منه، ومن هؤلاء: الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي[١].والإمام الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد الأنصاري[٢] وغيرهم.

مؤلفاته:

كان مما جاء في التقديم الذي قدمه المصنف بين يدي تفسيره: رأيت أن من الواجب على من احتبى، وتخير من العلوم واجتبى،أن يعتمدعلى علم من علوم الشرع،يستنفد فيه غاية الوسع،يجوب آفاقه، ويتبع أعماقه، ويضبط أُصوله،ويحكم فصوله، ويلخص ما هو منه،أو يؤول إليه، ويفي بدفع الاعتراضات عليه.... إلى أن قال: فلما أردت أن أختار لنفسي، وأنظر في علم أُعد أنواره لظلم رَمسي؛ سبرتها بالتنويع والتقسيم، وعلمت أن شرف العلم على قدر شرف المعلوم،فوجدت أمتنها حبالاً،وأرسخها جبالاً،وأجلها آثاراً،وأسطعها أنواراً: علم كتاب اللّه جلت قدرته... فثنيت

---

(١) هو محمد بن خير بن عمر بن خليفة الإشبيلي ، حافظ مجودٌمقرئ أديب، تلقى العلم عن كثيرين، توفي(٥٧٥هـ).انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ٢١/ ٨٥-وفهرس ابن خير: ٢٢-والتكملة لابن الأبار: ٥٢٤.

(٢) هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد اللّه بن يوسف الأنصاري،المعروف بابن حبيش ، فارس من فرسان الحديث بالأندلس، بارع في اللغة، تصانيفه كثيرة منها المغازي،توفي(٥٨٤هـ).انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ٢١/ ١١٨-وتذكرة الحفاظ للذهبي: ٤/ ١٣٥٣-وشذرات الذهب: ٤/ ٢٨٠.

إليه عنان النظر،وأقطعته جانب الفكر،وجعلته فائدة العمر.[١]

يتبين من هذا النص أن ابن عطية-رحمه اللّه- فد انتهج لنفسه منهجاً خاصاً،وهو أنه رأى أن الفائدة تكون أعظم حين ينصرف كل عالم إلى فرع من فروع العلم يفني في مسائله العمر، ويجعل همه ضبط أصوله، وهو منهج آل إليه أهل العصر،وأسموه التخصص الدقيق.

ولهذا الأمر لا يقف الناظر في ترجمة ابن عطية على مؤلف له غير التفسير الذي ذكر أنه أفنى فيه العمر،وكانت حصيلة جده واجتهاده، كما يجد القارىء أن المترجمين يذكرون للمصنف فهرساً أثبت فيه-يرحمه اللّه- أسماء شيوخه الذين تلقى العلم عنهم،وقد بلغ عددهم ثلاثون شيخاً،والفهرس مطبوع متداول.

وفاته:

اختلف في تحديد سنة وفاة ابن عطية،والراجح أنه توفي سنة(٥٤٦هـ)[٢]في منتصف شهر رمضان المبارك،في مدينة(لورقة)،غرب

---

(١) انظر: المحرر الوجيز: ١/ ٨-٩.

(٢)انظر: المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي لابن الأثير: ٢٦١ط مدريد ١٨٨٥م-والصلة لابن بشكوال: ٣٦٨-والديباج المذهب لابن فرحون: ١٧٥-ونفح الطيب للمقري: ٣/ ٢٧٩-وطبقات المفسرين للسيوطي: ٥٠-وللداودي: ٢٦٥.

وينظرللمزيد في ترجمته: الإحاطة في أخبار غرناطة،للوزير لسان الدين الخطيب:=

مرسية،وقد بلغ ستين عاماً،رحمه اللّه رحمه واسعة،وغفر اللّه لنا وله.

ثانياً: التعريف بالتفسير والمقدمة:

لم يحظ تفسير ابن عطية بالاهتمام المطلوب من أهل عصرنا،حيث تأخر ظهوره مطبوعاً عن تفاسير كثيرة لا تدانيه مرتبة،ولا تقربه منزلة،بل اعتمد كثير منهم على ابن عطية وآرائة في قضايا مشكلة في التفسير،مع أن جلَّ العلماء المعتبرين قد أشادوا بهذا التفسير وبمصنفه،قديماً وحديثاً،حتى قيَّض اللّه لإخراجه وتحقيقه-بعد أن طبعت مقدمته طبعة مستقلة-ثلة من أهل التحقيق،فأخرجوه في طبعة أنيقة، وحلة قشيبة،وتكرم بعض من رجا الخير من وراء طبعه، فطبعها على نفقته الخاصة،ووزع على طلبة العلم والمكتبات الخاصة والعامة فانتشر بذلك انتشاراً عظيماً عم به النفع.

والقارىء في تفسير ابن عطية يستشعر أمرين ربما امتاز بهما المصنف عن غيره ممن سبقوه،أكسبا التفسير قوة وحظوة، **أولهما** ما يلاحظه القارىء من العناية الفائقة بالتحقيق والتدقيق في المسائل العلمية،وتحري ما هو أقرب

=١/ ١٣٣-والديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون: ١٧٤_والصلة لأبي القاسم بن بشكوال: ٤٣١-وطبقات المفسرين للداودي: ١/ ٢٦٥ طبعة دار الكتب العلمية، طبقات المفسرين للسيوطي: ٥٠-وفهرس ابن عطية-وقلائد العقيان لأبي نصر بن خاقان: ٢١٥-والمعجم في أصحاب أبي علي الصدفي،لابن الأبار: ٢٦١- ومنهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم،د/ عبد الوهاب فايد_ونفح الطيب من غصن أندلس الرطيب للمقري: ٣/ ٢٧٩.

إلى الصواب،وأبعد عن البدع،إضافة إلى النَّفَس الطويل الذي يظهر بوضوح في معالجته للنصوص المشكلة،والمسائل المعضلة،والغوص في خبايا النص، وهو أمر غير مستغرب إذا علمنا أن هذا التفسير كان أثراً من آثار الشباب،فقد أفنى المصنف فيه عمره،ورسم بداياته منذ اليفاعة،فكم أيقظه والده وهو شاب من النوم في أنصاف الليالي يقول له: قم يا ولدي اكتب كذا وكذا في موضع كذا من تفسيرك[١].

والأمر الآخر الملاحظ في هذا التفسير هو قوة البيان،وسلامة العبارة وسلاستها،والنصوص الأدبية المحبوكة كأفضل ما يكون،والمنسجمة بقوة،وهي كلها أعطت لهذا التفسير قدراً خاصاً عند المشتغلين باللغة،وربما يعود سبب هذا التفوق والله أعلم إلى عروبة المصنف،فقد أفادته طبعاً أصيلاً،وسليقة صافية حتى فاض بيانه قوياً سائغاً سلسلاً[٢].

وقد سار المصنف في تفسيره على منهج السلف،حيث جعل ظاهر الآيات هو مدار البحث والدرس، دون القول بالرمز والإشارة،الذي يلجأ إليه أهل الزيغ والضلالة[٣].

---

(١) انظر: بغية الملتمس: ٤٢٧.

(٢) انظر: التفسير ورجاله لابن عاشور: ٩٢.

(٣) انظر: المحرر الوجيز: ١/ ١١.

وهو أمر جعل للتفسير قدراً واعتباراً عند أهل العلم،حتى أغدقوا عليه الثناء،يقول ابن عميرة الضبي ت(٥٩٩هـ)[١]: ألف ابن عطيةفي التفسير كتاباً ضخماً أربى فيه على كل متقدم[٢].

ويقول ابن جزي الكلبي ت(٧٤١هـ): وأما ابن عطية فكتابه في التفسير أحسن التآليف وأعدلها،فإنه اطلع على تآليف من كان قبله فهذبها ولخصها،وهو مع ذلك حسن العبارة،مسدد النظر، محافظ على السنة.[٣]

وقال أبو حيان عنه وعن تفسير الزمخشري أنهما: قد أنجدا وأغارا،وأشرقا في سماء هذا العلم بدريْن وأنارا،وتنزلا من كتب التفسير منزلة الإنسان من العين، والذهب الإبريز من العين... إلى أن قال: وكتاب ابن عطية أنقل وأجمع وأخلص.[٤]

هذا وقد كان لإخلاص ابن عطية، والغاية التى لها صنّف كتابه،أثره البالغ في انتشاره،وقبوله عندالخاصة من أهل العلم، حتى صار أصدق

---

(١) هو أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي ، مؤرخ من علماء الأندلس،كان يعمل وراقاً،آية في سرعة الكتابة،له بغية الملتمس في تاريخ الأندلس،توفي(٥٩٩هـ).انظر: الأعلام للزركلي: ١/ ٢٦٨.

(٢) انظر: بغية الملتمس: ٣٧٦.

(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: ١/ ١٧.

(٤) انظر البحر المحيط لأبي حيان: ١/ ٢٠.

شاهد على إمامته،فحين ذكر المصنف الغاية التي لها صنف قال: ورجوتُ أن اللّه تعالى يُحرِّم على النار فكراً عَمَرَتْهُ أكثر عمره -معانيه،ولساناً مَرَنَ على آياته ومثانيه،ونفساً ميزت براعة رصفه ومبانيه[١].

والمحرر الوجيز تفسير جمع بين مدرستي التفسير،التفسير بالأثر،والتفسير بالرأي المحمود.وطبقاً للمنهج الذي انتهجه المصنف،وهو تحقيق الغرض المراد بإيجاز وتوسط، فقد حذف يرحمه اللّه أسانيد الروايات التي استشهد بها في مواضعها المتعددة.

وجاء اهتمام المصنف باللغة والقضايا اللغوية في المرتبة الأولى،فقد أولى هذا الجانب اهتماماً خاصاً،تمثلت في شرح المفردات القرآنية،والآراء النحوية وقصدت تتبع الألفاظ حتى لا يقع طفر[٢]كما في كثير من المفسرين[٣].

كما اهتم المصنف بالقراءات القرآنية،حتى الشاذة منها،يوجهها أو ينقدها وقصدت إيراد جميع القراءات،مستعملها وشاذها[٤].

---

(١) انظر: المحرر الوجيز: ١/ ٩.

(٢)الطفر: وثبة في ارتفاع،وطفر الحائط: وثبه إلى ما وراءه.والمراد هنا: أنه تتبع ألفاظ الآيات عكس بعض المفسرين الذين تركوا بعض الألفاظ. انظر: لسان العرب لابن منظور (طفر): ٢/ ٥٩٧.

(٣) انظر: المحرر الوجيز: ١/ ١١.

(٤) انظر: المحرر الوجيز: ١/ ١١.

ولم يغفل الأحكام القرآنية المستفادة من الآيات، ولا المسائل الفقهية، دون الإكثار منها متمشياً مع الدليل.

هذا ولم يسلم تفسير ابن عطية -رغم الحيطة- من بعض الإسرائيليات،فقد اشترط المصنف على نفسه أن لا يذكر منها إلا ما لا تنفك الآية إلا به[١]،غير أنه وقع في المحظور الذي حذَّر منه في بعض المواضع -وسيأتي بيان ذلك إن شاء اللّه- وهو مع هذا يبقى الرائد الذي خلَّص التفسير من كثير من الدخيل،يقول الأستاذ عبد الوهاب فايد: إن ابن عطية في تفسيره على وجه العموم قد اتخذ لنفسه منهجاً علمياً دقيقاً بالنسبة للروايات الإسرائيلية،ومن هنا يرتقي ابن عطيةإلى مصاف المفسرين الذين احتاطوا في الأخذ بالإسرائيليات،وقاموا بمحاولات جدية ومشكورة لتصفية التفسير من هذا الهشيم الإسرائيلي المركوم،الذي يشوه كتاب اللّه تعالى.[٢]

وهو الأمر الذي حدا بابن خلدون إلى القول: فلما رجع الناس إلى التحقيق والتمحيص،وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب،فلخص تلك التفاسير كلها،وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها،ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن

---

(١) انظر: المحرر الوجيز: ١/ ١٠.

(٢) انظر: منهج ابن عطية في تفسير القرآن، د/ عبد الوهاب فايد: ١٨٥.

المنحى.[١]

هذا وقد استحوذت مقدمة ابن عطية-رحمه اللّه-على اهتمام العلماء،حيث كانت محل عناية المفسرين والمهتمين بعلوم القرآن،فلم تخلُ كتاباتهم ومصنفاتهم من نصوص ابن عطية وآرائه،وما ذلك إلا لأهمية ما أثبته المصنف في مقدمته،ولهذا الأمر وجدنا الأيدي تمتد لإخراجها مستقلة عن أصلها منفصلةً عنه،فقد كانت هذة المقدمة أول مقدمة في علوم القرآن تطبع مستقلة،وكان ذلك عام ١٩٥٤م على يد المستشرق(آرثر جفري)حيث ضمها إلى مقدمة كتاب «المباني»،وأخرجهما معاً بعنوان «مقدمتان في علوم القرآن»،ونال الشهرة والانتشار بين طلبة العلم.

وقد جاءت مقدمة المصنف-حسب النسخة التي اعتمدتها، المثقلة بالهوامش-في أربع وستين صفحة من القطع المتوسطة، شغلت الهوامش ما يربو على نصفه، شارحة لعباراته، مخرجة لرواياته، معرِّفة برجالاته.

قسم ابن عطية مقدمته إلى تسعة أبواب،إضافة إلى التقديم الذي بين فيه أهمية علم التفسير،والأسباب الداعية للتصنيف، والمنهج المتبع في التأليف، وهذه الأبواب هي:

١) ما ورد عن النبي ﷺ وعن الصحابة ونبهاء العلماء-رضي اللّه عنهم-في فضل القرآن المجيد وصورة الاعتصام به.

---

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون: ٣١٤طبعة دار المصحف بالقاهرة.

٢) في فضل تفسير القرآن، والكلام على لغته. والنظر في إعرابه ودقائق معانيه.

٣) ما قيل في الكلام في تفسير القرآن، والجرأة عليه، ومراتب المفسرين.

٤) معنى قول النبي: « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه ».

٥) ذكر جمع القرآن،وشكله، ونقطه، وتحزيبه، وتعشيره.

٦) في ذكر الألفاظ التي في كتاب اللّه وللغات العجم بها تعلق.

٧) نبذة مما قال العلماء في إعجاز القرآن.

٨) في الألفاظ التي يقتضي الإيجاز استعمالها في تفسير كتاب اللّه تعالى.

٩) في تفسير أسماء القرآن،وذكر السورة والآية.

وهذه الأبواب كما يظهر من عناوينها قد حوت موضوعات أربت على عدد الأبواب، وهي من الموضوعات التي ينبغي أن تكون راسخة في حفظ الناظر في التفسير، مجتمعة لذهنه، بذل فيها المصنف جهداً عظيماً حتى استوى على سوقه،فأكثر من الروايات والآثار بقدر ما تدعو إليه الحاجة، وبين اختلاف أهل العلم في المعضلات والمشكلات،بعبارة رصينة محكمة، عصمته من التطويل الذي اشترط على نفسه تجنبه.

وقد وقفْتُ على ثلاث طبعات للمقدمة، إحداها مستقلة طبعت

بعناية المستشرق(آرثر جفري)وهي التي أشرت إليها قبل قليل،طبعت قبل طباعة صلب التفسير بأكثر من ثلاثة عقود، واعتمدها طلبة العلم بتحريفاتها وأغلاطها التي ربما كان بعضها متعمدة من المحقق، بل يجزم الأستاذ عبد الوهاب فايد في دراسته لتفسير ابن عطية بأنها تحريفات مقصودة، أراد منها المحقق الدس في هذا التفسير العظيم.(١)

والطبعتان الأخريتان هما اللتان طبعتا مع صلب التفسير، الأولى من إصدارات المجلس العلمي بفاس، عام ١٣٩٥هـ، صدرت على أجزاء متفرقة في عدة سنوات على نفقة ملك المغرب.

والثانية عام ١٣٩٨هـ طبع على نفقة أمير دولة قطر،بتحقيق الأساتذة الرحالي الفاروق -وعبد اللّه بن إبراهيم الأنصاري-والسيد عبد العال السيد إبراهيم- ومحمد الشافعي صادق العناني.

وهذه الطبعة هي التي اعتمدتها في هذه الدراسة وهي قليلة الأخطاء، مثقلة بالحواشي.

---

(١) ذكر ابن عطية في معرض حديثه عن البسملة أثران يقتضيان أن البسملة آية من الحمد، ثم قال: ويرد ذلك حديث أبيّ بن كعب الصحيح وجاءت هذه العبارة في نسخة آرثر جفري على النحو التالي: (ويبين ذلك حديث أبي بن كعب الصحيح). انظر المقدمة: ٢٨٧،وانظر المحرر الوجيز: ١/ ٧٩، وقد ذكر الأستاذ الفايد أكثر من تحريف في هذه المقدمة،انظره في: منهج ابن عطية في تفسير القرآن: ٨٤.

ثالثاً:عرض موضوعات المقدمة:

بدأ ابن عطية -يرحمه اللّه-تفسيره بالحمد للّه، والشكر له على تفضله وامتنانه، حيث جعل أمة محمد ﷺ أمة وسطاً بين الأمم، وألهمها من العوارف والمعارف ما يوصلها إلى معرفته جلت قدرته.

وأسدى التزكيات المباركات على رسول اللّه ﷺ الذي نهض بأعباء الرسالة حتى بلَّغها أتم تبليغ.

بعدها بيَّن-رحمه اللّه- أنه تحمل المتاعب الجمة،وركب الصعاب، فأوصل الليل بالنهار طالباً للعلم، وباحثاً عن المعرفة، حتى نال ما سعى إليه وتمناه،فأخذ من العلوم ما قدر عليه،ثم إنه حين رأى تنوع العلوم وكثرتها،وتشعبها،أراد أن يختار لنفسه علماً يقضي في بحث مسائله جلَّ أوقاته، ويفني فيه العمر،فكان أن هداه اللّه إلى علم كتابه جلت قدرته،أمتن العلوم وأرسخها وأسطعها، فجعله مدار بحثه ودرسه، وأثنى إليه عنان النظر،وأقطعه جانب الفكر.

ثم عرض المصنف منهجه في كتابه، فوصفه بالتوسط والإيجاز، على مذهب السلف في النظر إلى ظواهر النصوص، دون الخوض في الرمز والإيحاء على مذهب أهل الزيغ والإلحاد.

وقبل أن يقدم بين القول في التفسير الأشياء التي ينبغي أن تكون راسخة في حفظ الناظر في هذا العلم،مجتمعة له، قبل ذلك رجا اللّه الثواب

من وراء العمل، وأن يبارك له في الذي فعل.

الباب الأول: ما ورد عن النبي ﷺ
وعن الصحابة ونبهاء العلماء - رضي اللّه عنهم -
في فضل القرآن المجيد وصورة الاعتصام به

ذكر المصنف في هذا الباب جملة من الأحاديث والآثار وأقوال أهل العلم، في فضل القرآن الكريم،أراد من خلالها بيان فضل كتاب اللّه تعالى،وأن المتمسك به لن يضل أبداً، كما أشارت تلك الآثار إلى العديد من خواص كتاب اللّه، وكان من جملة تلك الآثار التي أوردها تلك التي أكدت على فضل تلاوة القرآن الكريم،وفضل تعلمه وتعليمه،وما يلقاه التالي له من النور، وما ينتظره من الوعد المقيم.

أعقب ذكر الآثار التنبيه إلى أن التلاوة الحقة تقتضي العمل بالمتلو، فذكر أن مراد الحق تعالى من ﴿ثَقِيلاً﴾في قوله ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾[المزمل: ٥] هو العلم بمعانيه والعمل به، والقيام بحقوقه.

وقد جاء هذا الباب في اثني عشرة صفحة.

الباب الثاني: في فضل تفسير القرآن،
والكلام على لغته،والنظر في إعرابه ودقائق معانيه

جاء هذا الباب مختصراً،أكد فيه المصنف أن إعراب القرآن أصل في الشريعة لأنَّ به تقوم معانيه، وروى في ذلك حديثين للدلالة على أهمية

الموضوع، وعدة آثار عن كبار الصحابة والتابعين تبين مكانة العارف بتفسير كتاب اللّه، ومدى حرص السلف رضوان اللّه عليهم على تعلم علم القرآن، والنظر في دقائق معانيه.

وقد اختار المصنف الآثار التي ذكرها كنماذج للدلالة على ما أراد بيانه،ولم يكثرمن ذلك تمشياً مع المنهج الذي رسمه لنفسه، وهو الإيجاز والاختصار غير المخل، وإلا فالآثار الواردة في هذا الباب كثيرة.

الباب الثالث: ما قيل في الكلام في تفسير القرآن، والجرأة عليه،ومراتب المفسرين

في هذا الباب تحدث المصنف عن ثلاثة موضوعات كما يظهر من عنوانه:

١) الكلام في تفسير القرآن.

٢)التفسير بالرأي، وهو ما عبر عنه بالجرأة عليه.

٣) مراتب المفسرين.

أورد المصنف للموضوع الأول،الأثر الوارد عن أم المؤمنين عائشة- رضي اللّه عنها- وهي تؤكد أن رسول اللّه ﷺ لم يفسر القرآن كله،وإنما فسر آياً بعدد علَّمه إياهن جبريل؛ ثم تحدث عن تأويل ذلك وبين أنه وارد في مغيبات القرآن،وتفسير مجمله،مما لا سبيل إليه إلا بتوفيق من اللّه تعالى.

انتقل عقب ذلك إلى الموضوع الثاني، فأورد عن رسول اللّه ﷺ أنه

قال: «من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»، وذكر أن مراده ﷺ أن يسأل الرجل عن معنى في كتاب اللّه فيتسور عليه برأيه دون نظر فيما قاله العلماء،ولهذا فإن التفسير المبني على النظر في الأدلة لايدخل في هذا الحديث،وأن من السلف من كان يتحرج من الخوض في تفسير الآيات بالرأي تورعاً واحتياطاً،وأن آخرين منهم فسروا كثيراً من الآيات بعد أن ملكوا أدوات التفسير،وهؤلاء كانوا أشفق على الأمة في ذلك،إذ بينوا الغريب من الألفاظ،والغامض من المعاني.

وبذلك انتقل للحديث عن الموضوع الثالث،وهو الأخير في هذا الباب،فذكر -يرحمه اللّه -نماذج ممن برزوا في جانب التفسير،من الجيل الأول،وإلى عصره،وقال معقباً: وكلهم مجتهدون مأجورون. وقد جاء هذا الباب في أربع صفحات.

الباب الرابع: معنى قول النبي ﷺ : «القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه»

هذا أطول باب تعرض له المصنف في مقدمته،فقد جاء في خمس عشرة صفحة،قرر المصنف في بدايته اختلاف الناس فيه اختلافاً شديداً،ثم ذكر بعض تلك الآراء في بيان معنى الأثر الوارد فيه،يعقب على كل قول يورده، فيضعف بعضها،ويجوِّز غيرها،ويناقش القائل.

وارتضى من الأقوال اختيار أبي عبيد وغيره من أهل العلم،وهو أن

معنى الحديث أنه سبع لغات لسبع قبائل،ورجح الرأي وانتصر له،ثم سعى لتحديد القبائل التي نزل القرآن على لغاتها،فذكر أنها قريش،وكنانة،وأسد، وهذيل، وتميم، وضبَّة وألفافها،وقيس،وهي القبائل التي انتهت إليها الفصاحة،وسلمت لغاتها من الدّخل.

ولكون أبي عبيد والمبرد وغيرهما من القائلين بهذا القول كانوا قد ذكروا أن عرب اليمن من القبائل التي نزل القرآن بلسانها،لهذا الأمر أوَّل المصنف قولهم، وقال: ذلك عندي إنما هو فيما استعمله عرب الحجاز من لغة اليمن، فأما ما انفردوا به فليس في كتاب اللّه منه شيء،فقد أفسد كلام اليمن خلطة الحبشة والهنود.

بعد هذا ذكر من أفسد لغة شرقي الجزيرة مما والى العراق،وشمال الجزيرة مما والى الشام،وذكر أن ما يقوي هذا المنزع أنه حين اتسع نطاق الإسلام،وتجرد أهل البصرة والكوفة لحفظ لسان العرب،وكتب لغتها،لم يأخذوا إلا عن هذه القبائل الوسيطة المذكورة،وتجنبوا اليمن والعراق والشام،كما تجنبوا لغة الحواضر مكة والمدينة والطائف،لأن السبي والتجار من الأمم كثروا فيها،فأفسدوا اللغة،وقد كانت في مدة النبي ﷺ سليمة لقلة المخالطة.

إذاً سبع قبائل عربية،بلغة جملتها نزل القرآن،هو التفسير الراجح لدى المصنف في معنى الحديث الوارد في هذا الباب.

وحين انتشرت الروايات الكثيرة في القراءات التي وردت على لسان

رسول اللّه ﷺ وافترقت الصحابة رضوان اللّه عليهم في البلدان،ووقع بين أهل الشام والعراق ما وقع من الخلاف في القراءة،ونقل حذيفة الأمر لعثمان بن عفان - رضي اللّه عنهما- رجاء أن يدرك الأمة قبل أن يشتد الخلاف،استناب عثمان الكفاءات العلمية الفصحاء ليكتبوا القرآن، ويجعلوا ما اختلفت القراءة فيه على أشهر الروايات عن رسول اللّه ﷺ،وأفصح اللغات، فترك الناس ما خرج عنه مما كان كتب،سداً للذريعة، وتغليباً للمصلحة.

بعدها ذكر المصنف مصحف ابن مسعود - رضي اللّه عنه - وأن العلماء تركوه سداً للذريعة ولكونه حوى أشياء على جهة التفسير، كما ذكر قراءات القراء السبع المشتهرة،وشاذ القراءة،وقراءة أبي السمال.

وختم الباب بالإشارة إلى أن ما تعرض له في هذا الباب قد وقع فيه خلاف غير أنه أعرض عن ذكره والغوص فيه تجنباً وكراهية للإطالة،والتزاماً بالمنهج.

الباب الخامس: ذكر جمع القرآن،وشكله، ونقطه، وتحزيبه، وتعشيره

أشار المصنف في بداية حديثه أن القرآن كان مجموعاً في صدور الرجال،كما كان مكتوباً في الصحف واللخاف وغيرها من وسائل حفظ المكتوبات،فلما استحر القتل بالقراء يوم اليمامة،جُمع المصحف بإشارة من عمر - رضي اللّه عنه - وندب من أبي بكر رضي الله عنه- فجمعت الصحف على

يد زيد ﷺ، وبقيت تلك الصحف مجموعةً إلى خلافة عثمان - رضي اللّه عنه حين اختلف الناس في المصاحف التي انتشرت على الأحرف السبعة،كمصحف ابن مسعود،ومصحف أبيّ بن كعب وغيرهما، فندب عثمان - رضي اللّه عنه زيد بن ثابت وغيره بإيحاء من حذيفة - رضي اللّه عنه إلى جمع الناس على مصحف واحد،ووضع لهم عثمان منهج الجمع والتدوين،فنسخت الصحف، عدة نسخ،وأرسلت إلى الأمصار لاعتمادها،وأمر بما سواها أن تحرق أو تخرق.

بعدها تحدث المصنف عن ترتيب السور، لكونها مختلفة في مصاحف الصحابة، فذكر قول الباقلاني وغيره بأن ترتيب السور كان من زيد ومن معه،بمشاركة من عثمان ﷺ وهو رأي مكي بن أبي طالب، أما ترتيب الآيات ووضع البسملة فهي توقيفية من النبي ﷺ، خلا براءة التي أرجأ المصنف الحديث عنها إلى حينه.

ثم بيَّن أن ظواهر الآثار تؤكد أن السبع الطول والحواميم والمفصل كان مرتباً في زمن النبي ﷺ،وكان من السور ما لم يرتب،فذلك هو الذي رتّب وقت الكَتْب.

وختم الحديث عن شكل المصحف ونقطه وتحزيبه وتعشيره، فصرح أن العلماء مختلفون في تعيين أول من أقدم على ذلك.

وقد جاء هذا الباب في سبع صفحات.

الباب السادس: في ذكر الألفاظ التي في كتاب الله وللغات العجم بها تعلق

بدأ المصنف هذا الباب بذكر اختلاف العلماء في هذه المسألة،فذكر أنهم فريقان،الأول يرى أن في كتاب اللّه من كل لغة،والآخر يرى أن القرآن ليس فيه لفظة إلا وهي عربية صريحة،وذكر الأمثلة على الكلمات التي وقع الخلاف فيها.

وصرح باختياره،فبين أن تلك الألفاظ في أصلها أعجمية،لكن استعملتها العرب وعربتها،فغيرت بعضها بالنقص من حروفها، وجرت إلى تخفيف العجمة، واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها،حتى جرت مجرى العربي الأصيل،ووقع بها البيان.

وختم الباب بالرد على ابن جرير رائد الفريق الثاني،والقائل أن اللغتين اتفقتا في لفظة لفظة،فاستبعد ذلك، وأكد أن إحداها أصل والأخرى فرع.

الباب السابع نبذة مما قال العلماء في إعجاز القرآن

ذكر المصنف أن الناس اختلفوا في إعجاز القرآن بأي شيء هو؟ فأورد بعض تلك الأقوال،وبين أن التحدي وقع بنظمه،وصحة معانيه،وتوالي فصاحة ألفاظه،وفي ذلك ردٌّ على القائلين بالصرفة.

ثم أوضح أن كلام البشر لا يمكن أن يصل إلى الإحكام الذي هو في كلام منزل الكتاب،وضرب الأمثلة من كلام الفصحاء والشعراء،وكيف أن

كلامهم يميِّز رغم تنقيحه مدة طويلة،ولذلك أذعنت العرب للأمر،وتأكدت أنه لا يمكن لبشر أن يأتي بمثل ما أتى به محمد ﷺ،فكان سبب إيمان بعضهم.

ولهذا فإنه تعالى اختار معجزة كل نبي بالوجه الشهير في زمانه،وعليه كانت معجزة موسى عليه السلام للسحرة،وعيسى عليه السلام للطب، ومحمد ﷺ للفصاحة.

الباب الثامن في الألفاظ التي يقتضي الإيجاز استعمالها في تفسير كتاب اللّه تعالى

أراد المصنف من وراء هذا الباب في مقدمته أن يبين موقفه من إسناد بعض الأفعال إلى اللّه،وهي لم تثبت بتوقيف من الشارع، فذكر أن جلة من المفسرين قد أباحوا ذلك،وفعلوه،وذلك جرياً على عادة العرب في استعمال ذلك في سياق كلامها، وهي محمولة على المجاز،كقولهم: حكى اللّه تعالى عن أم موسى أنها قالت ﴿قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١] وكقولهم: وقف اللّه ذرية آدم على ربوبيته بقوله ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ونحو ذلك.

يريد المصنف بذلك الاحتراز من الخوض في مثل هذا الأمر،فكلام اللّه صفة قديمة من صفاته،والحكاية عن المذكورين أمر محدث،وهو يقتضي تأخير المحكي.

أوضح يرحمه اللّه أنه يتحفظ من مثل هذا الأمر،وهو يخشى أن يقع منه ذلك،مع أنه جار في كلام العرب، وهو الأمر الذي يبرر للمفسرين

الذين وقعوا فيه، ولهذا اعتذر لإخوانه من المفسرين فعلتهم،وذكر أدلة كثيرة من كلام فصحاء العرب، وشعر شعرائها.

الباب التاسع في تفسير أسماء القرآن، وذكر السورة والآية

ذكر للقرآن أربعة أسماء: القرآن،والكتاب، والفرقان،والذكر،وهي الأسماء الأربعة المشهورة،وبيَّن أصل تلك التسميات،والأدلة عليها.

ثم انتقل لذكر السورة،فذكر الاختلاف المشهور فيها حول كونها مهموزة أو غير مهموزة،وكذا سبب إطلاقها على ذلك المجموع من كلام اللّه.

كما بين معنى الآية في كلام العرب،وسبب إطلاقها على الجملة التامة من القرآن،والخلاف في ذلك،وأصل اللفظة واشتقاقها.

تلك هي المقدمات التي بدأ بها ابن عطية كتابه،ليدل على أن الدواعي إلى معرفة هذه العلوم قوية،وأن الحاجة إليها ماسة لمن أراد فهم كتاب اللّه على الشكل الصحيح المبني على القواعد السليمة.

رابعاً: منهج ابن عطية في مقدمته:

الإيجاز وحذف فضول القول كانت السمة الأساسية لمنهج ابن عطية يرحمه اللّه- فقد ظهر ذلك جلياً في مادة مقدمته كلها، والإيجاز قد يكون مخلاً بالمادة العلمية أحياناً،فيظهر القصور في العبارة،والغموض في القول،والنقص في الأدلة،غير أن الأمر يختلف إذا كان الموجز من فرسان البلاغة،صاحب عبارة رصينة،وأسلوب بياني محكم كابن عطية.

لقد استطاع المصنف أن يوجز دون أن يخل،ويوضح دون أن يطيل،حتى جاءت المقدمة غاية في الدقة والإيجاز،عبارة ومنهجاً.

ويتلخص منهج المصنف في مقدمته في الآتي:

١) ذكر أقوال أهل العلم في المسائل منسوبة إليهم[١]،وهو النهج الذي ألزم المصنف نفسه به، وقد التزمه في الغالب، غير أنه قد يخرج عن نهجه هذا فيطلق نسبة القول، ويقول: قال بعض العلماء، أو نحو ذلك.[٢]

٢) إيراد الخلاف في المسائل الهامة، مع عرض الآراء بعبارة موجزة.[٣]

٣) التصريح بموقفه من الخلاف وبيان رأيه ومناقشة الآراء الوجيهة بعبارة مختصرة[٤].

٤) عدم الإكثار من الآثار والأدلة على المسألة الواحدة، والاكتفاء بما يبين المقصود.

٥) ومن منهج المصنف الاستشهاد بالحديث والأثر واللغة والشعر

---

(١)انظر أمثلة ذلك في الصفحات:: ١٤، ١٥، ٢٠، ٢١، ٣٧، ٣٨، ٥٥، ٥٧، ٦٨، ٧١.

(٢) انظر أمثلة ذلك في الصفحات: ١٩، ٢٠، ٣٥، ٣٨.

(٣) انظر أمثلة ذلك في الباب الرابع والسادس والسابع، من المقدمة.

(٤) انظر أمثلة ذلك في الصفحات: ٢٨، ٣٥، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٧، ٥٩.

obeikandl.com

لتأكيد معنى، أو تأييد رأي[١].

٦) عدم ذكر سند الرواية، والاكتفاء بذكر الصحابي الذي روى الحديث في الغالب[٢]،وقد يحذف الصحابي أيضاً[٣].

٧) وهذا والمصنف يرحمه اللّه- قد يحيل القار في المسائل الهامة التي تحتاج إلى بسط القول فيها إلى موضعه من التفسير، خصوصاً تلك التي تعرض لها، ولها تعلق بالسور والآيات.[٤]

خامساً: بيان مدى التزام المصنف في تفسيره بما ذكره في مقدمته:

أما ما يخص التزام المصنف في تفسيره بما ذكره في مقدمته، فقد ذكر المصنف أنه قصد من تفسيره أن يكون جامعاً للأقوال والعلوم، وجيزاً بحذف فضول القول، مبيناً أن العناصر التي سيذكرها عند حديثه عن الآية أو الآيات هي النحو واللغة والمعنى والقراءة. وهو أمر يجده القارئ بوضوح في تفسيره، فقد راعى المصنف ذلك إلى حد كبير.

كما ذكر المصنف أنه سيسقط القصص الإسرائيلي، ولن يذكر منه إلا ما لا تنفك الآية إلا به، وهو أمر حاول المصنف الالتزام به، فكثيراً ما نجده

---

(١) انظر أمثلة ذلك في الصفحات: ١٤، ٢٥، ٢٦، ٤٦، ٦٩، ٧٠، ٧١.

(٢) انظر أمثلة ذلك في الصفحات: ١٧، ١٨، ٢٢، ٢٥، ٢٧.

(٣) انظر أمثلة ذلك في الصفحات: ١٣، ١٤، ٢٣، ٢٦.

(٤) انظر: المحرر الوجيز: ١/ ٥٤.

يذكر القصة ثم ينبه إلى أن المروي في الباب أكثر، غير أنه اختصرها لكونه لا يقطع منها بشيء، أو يقول في نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِن رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨] وكثر الرواة في قصص التابوت وصورة حمله بما لا أرى لإثباته وجهاً للين إسناده، أو نحو ذلك[١]. غير أنه لم يلتزمه دائماً، فقد يجد القارئ ابن عطية في أكثر من موضع وهو يورد الرواية الإسرائيلية ويتركها دون تعقيب وبيان لحالتها[٢].

ومن شرطه في كتابه أيضاً إثبات أقوال العلماء في المعاني منسوبة إليهم على ما تلقى السلف الصالح رضوان اللّه عليهم كتاب اللّه من مقاصده العربية السليمة من إلحاد أهل القول بالرموز، وأهل القول بعلم الباطن. وهذا مما التزمه المصنف بشكل تام، فهو إذا شرع في تفسير الآية وكان لأصحاب المنحى الإشاري قول فيه ذكره أو أشار إليه مستبعداً له،[٣] وخاصة من أولئك الذين قال عنهم في مقدمته: فمتى وقع لأحد من العلماء الذين حازوا حُسن الظن بهم لفظ ينحو إلى شيء من أغراض الملحدين نبهت عليه.

ومن شرطه أيضاً ذكر القراءات المستعملة منها والشاذة، ويقصد بالمستعملة التي ثبتت بالإجماع والتي يقرأ بها في الصلاة، والشاذة التي لا

---

(١) انظر مثاله: ٢/ ٣٦٠-٣٧١-٤/ ٢٨٤.

(٢) انظر مثاله: ٣/ ٩٥-١٣١.

(٣) انظر مثاله: ٥/ ١٢٢-٢٢٣-٨/ ١٥٨-٤١٦.

يصلى بها لأنها لم تثبت بالإجماع. والناظر في المحرر الوجيز يجد أن المصنف قد التزم هذا الشرط، وسار عليه من بداية تفسيره إلى منتهاه.[١]

سادساً: مصادر المؤلف في مقدمته:

اعتمد ابن عطية يرحمه اللّه في مقدمته على عدد من المصادر الهامة، والمعتمدة لدى المشتغلين بعلوم القرآن، وقد اختلف منهجه في الاستفادة منها، فهو مرة ينقل النص من المصدر ويذكر ذلك، وحيناً يذكر نصاً وينسبه إلى قائله، ويكون القائل صاحب تصنيف مشهور في الباب، وهذا الأخير هو الغالب عليه، والأمثلة على ذلك كثيرة.

ومن أهم مصادر ابن عطية:

محمد بن جرير الطبري.[٢]، وأبو بكر بن الطيب الباقلاني، وقد اعتمد أقواله في باب الأحرف السبعة، وجمع القرآن وهي مما جاء في كتابه الانتصار لصحة نقل القرآن[٣]، وأبو عبيدة صاحب مجاز القرآن[٤] وأبو عبيد القاسم

---

(١) انظر مثاله: ٢/ ٤٠٧-٤/ ٤٠١-٧/ ١٤٧.

(٢) انظر مواضع النقل عنه في الصفحات: ٥١، ٥٢، ٥٧.

(٣) انظر مواضع النقل عنه في الصفحات: ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٤١، ٥٣.

(٤) انظر مواضع النقل عنه في الصفحة: ٥٧-٧٠.

بن سلام، صاحب فضائل القرآن،[١] والإمام المقرئ أبو عمرو الداني[٢] وأبو علي الفارسي[٣] والإمام البخاري[٤] وثابت بن قاسم، صاحب كتاب الدلائل في شرح الحديث، هو من الكتب القليلة التي صرح المصنف بالأخذ عنه.[٥]

وعدد آخر لم يرد ذكرهم إلا قليلاً كأبي المعالي الجويني وكتابه الإرشاد[٦] ومكي ابن أبي طالب[٧]،والفراء[٨] والإمام مسلم القشيري صاحب الصحيح[٩]، والجاحظ في كتاب الأمصار[١٠]، والزبيدي في كتاب

---

(١) انظر مواضع النقل عنه في الصفحات: ٤١، ٤٣.

(٢) انظر مواضع النقل عنه في الصفحات: ٢١، ٥٦.

(٣) انظر مواضع النقل عنه في الصفحات: ٦٤، ٦٥، ٧٢.

(٤) انظر مواضع النقل عنه في الصفحات: ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٥١.

(٥) انظر موضع النقل عنه في الصفحات: ٣٥، ٣٨، ٤٢.

(٦) انظر موضع النقل عنه في الصفحة: ٦٣.

(٧) انظر موضع النقل عنه في الصفحة: ٧٢.

(٨) انظر موضع النقل عنه في الصفحة: ٧٢.

(٩) انظر موضع النقل عنه في الصفحة: ٣٥.

(١٠) انظر موضع النقل عنه في الصفحة: ٥٥.

obeikandl.com

الطبقات[١] وأبو الفرج صاحب الأغاني[٢] وغيرهم.

سابعاً- أهم مزايا المقدمة:

لمقدمة ابن عطية يرحمه اللّه مزايا عديدة، ربما تفرد ببعضها، وأذكر منها:

١) تنوع الموضوعات التي اختارها المصنف، وقدمها بين يدي تفسيره.

٢) الإيجاز والاختصار في عرض الموضوعات، وكذا في سرد الأقوال.

٣) الإعراض عن الأقوال الساقطة، وفضول القول.

٤) الرد التفصيلي على بعض الأقوال المرجوحة ومناقشة قائليها.

ثامناً- أظهر المآخذ على المقدمة:

١) إغفال بعض أصول التفسير، وعدم التوسع فيما ذكر منها.

٢) عدم بيان درجة كثير من الآثار المستشهد بها.

٣) القصور في معالجة بعض الموضوعات مثل إعجاز القرآن.

هذا ما قلته في تفسير ابن عطية وأستغفر اللّه من الزلل.

---

(١) انظر موضع النقل عنه في الصفحة: ٥٥.

(٢) انظر موضع النقل عنه في الصفحة: ٥٥.

obeikandi.com

٨- زاد المسير في علم التفسير

لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي المعروف بابن الجوزي المتوفى سنة (٥٩٧هـ).

أولاً: التعريف بالمؤلف:

مؤلف هذا الزاد العظيم هو الإمام أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عُبيد اللّه الجوزي القرشي البغدادي، والمعروف بابن الجوزي[١].

اختلف أهل العلم في تحديد العام الذي ولد فيه الإمام[٢] والذي يترجح أنه كان عام (٥١٠هـ) أو قريباً منه كما يظهر من كلام الإمام نفسه،

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ٢١/ ٣٦٥- ووفيات الأعيان لابن خلكان: ٣/ ١٤٠- والجوزي نسبة إلى جدهم، وقد عُرف بذلك؛ قيل: لجوزة كانت في دارهم بواسط لم يكن بها جوزة سواها، وقيل غير ذلك. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ٢١/ ٣٧٢-وطبقات المفسرين للداودي: ١/ ٢٧٦.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي: ٢١/ ٣٦٦-وطبقات المفسرين للداودي: ١/ ٢٧٦- وذيل الطبقات الحنابلة لابن رجب: ١/ ٤٠٠-وفنون الأفنان لابن الجوزي -مقدمة المحقق: ٢٦.

فقد سُئِلَ يرحمه اللّه عن ذلك فقال: لا أتحقق مولدي.[١] ثم قال في موضع آخر: يكون تقريباً في سنة عشر[٢]. أي وخمس مئة.

والإمام ابن الجوزي منسوب لخليفة رسول اللّه ﷺ أمير المؤمنين أبي بكر الصديق ﷺ فهو ينحدر من أرومة شريفة، ونسب عظيم، ظهر أثره في حياته الخاصة والعامة.

نشأ الإمام يتيماً، حيث توفي والده وهو لم يتجاوز ربيعه الثالث، وانصرفت عنه الأم في وقت هو أحوج ما يكون فيه إليهما، فتلقته العناية الإلهية، وحاشا للّه الرحيم أن يترك أحبابه، لقد سخر اللّه للصغير عمة فاضلة، نهضت وانتصبت لتحتضن اليتيم، ولتقوم على رعايته والاهتمام به، وألقى اللّه في روعها أن تهبه للعلم الشرعي، فحملته لتلقيه في حضن مربٍّ فاضل، وعالم نحرير، هو الإمام أبو الفضل بن ناصر، فتوسم فيه خيراً، وأجلسه موضع التعليم، وأولاه العناية والرعاية، بجد واهتمام، وجعله اللّه سبباً لإرشاده، فحمله مراراً إلى المشايخ، وأسمعه مسند الإمام أحمد وهو في سنٍّ لا يدري ما العلم من الصِّغَر، فكان بديلاً عن أبيه، كما كانت العمة خير بديلة عن أمه، حتى غدا بفضل اللّه أولاً، ثم برعاية العمة والأستاذ ثانياً، ثم بما غرس اللّه في نفسه من حب العلم ثالثاً، كأفضل من كان في

(١) انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان: ٣/ ١٤٢.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ٢١/ ٣٦٨.

زمانه، أدباً وسلوكاً وتحملاً وخلقاً وعلماً.

ذاق ابن الجوزي الصعاب في تلقي العلم، ومنع نفسه متع الدنيا، وألجمها من البحث عن ملذاتها، حيث وجد المتعة الحقيقية في الدرس وطلب العلم (ولقد كنت في حلاوة طلبي للعلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل، لأجل ما أطلب وأرجو).[١] ورأى أن ذلك كان سبباً لفلاحه في العلم وتحصيله (كنت زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة فأخرج إلى طلب الحديث، وأقعد على نهر عيسى فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء، فكلما أكلت لقمة شربت عليها، وعين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم، فأثمر ذلك عندي أني عرفت بكثرة سماعي لحديث سِيَر رسول اللّه ﷺ وأحواله وآدابه...)[٢] ولم تدفعه حاجته إلى أن يمد يده للناس أو ينظر إلى الذي في أيديهم، فعاش عفيفاً، وطلب العلم للّه ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجاً. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢]

انكب ابن الجوزي على العلم، وانتقل من شيخ لآخر، ومن كتاب إلى آخر حتى طالع أكثر من عشرين ألف مجلد، وهو لا يزال في طلب العلم[٣]. وهكذا حتى انتهت إليه معرفة الحديث وعلومه، والوقوف على صحيحه

---

(١) انظر: صيد الخاطر لابن الجوزي: ٢١٣.

(٢) المصدر السابق: ٢١٣.

(٣) انظر: المصدر السابق: ٣٧٥.

من سقيمه، فكان من أحسن الناس كلاماً، وأتمهم نظاماً، وأعذبهم لساناً، وأجودهم بياناً[١]، يسير على منهج السلف ويلتزمه سلوكاً وعملاً وعبادة، ويرشد إليه أعز الناس، كتب لولده تصنيفه القيم «لفتة الكبد» حثه فيه مراراً وتكراراً على التزام هذا المنهج، والاقتداء بسيرة السلف، والالتزام بسلوكهم.

كما (كان بحراً في التفسير، علاّمة في السير والتاريخ، موصوفاً بحسن الحديث ومعرفة فنونه، فقيهاً عليماً بالإجماع والاختلاف، جيد المشاركة في الطب، ذا تفنن وفهم وذكاء وحفظ واستحضار وإكباب على الجمع والتصنيف مع التصون والتجمل، وحسن الشارة ورشاقة العبارة، ولطف الشمائل، والأوصاف الحميدة، والحرمة الوافرة، عند الخاص والعام، ما عرفت أحداً صنَّف ما صنف).[٢]

شيوخه وتلامذته:

تضمن (مشيخة ابن الجوزي) أسماء شيوخه وترجمة وافية لهم، كما ذكر يرحمه اللّه في (صيد الخاطر) جملة من أخبارهم وقال: لقيت مشايخ أحوالهم مختلفة، يتفاوتون في مقاديرهم في العلم، وكان أنفعهم لي في صحبته

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ٢١/ ٣٧٣.

(٢) قاله الإمام الذهبي: انظر سير أعلام النبلاء: ٢١/ ٣٦٧.

العامل منهم بعلمه، وإن كان غيره أعلم منه[١] .

ومن **شيوخه** الذين تتلمذ عليهم، وأخذ عنهم:

أبو الفضل محمد بن ناصر السلامي ت(٥٥٠هـ)[٢]، وأبو الحسن علي بن عبيد اللّه الزاغوتي ت (٥٢٧هـ)[٣]، وأبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقي ت(٥٤٠هـ)[٤] .

أما تلامذته فهم كثر، منهم الأئمة والعلماء، وقد أورد الذهبي نصاً فيه ذكر بعضهم، منهم: الشيخ موفق الدين ابن قدامة[٥]، وابن النجار[٦] وخلق سواهما.[٧]

---

(١) انظر: صيد الخاطر: ١٤٠.

(٢) انظر: لفتة الكبد لابن الجوزي: ٣٠-والمنتظم له: ١٠/ ١٦٢-وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب: ١/ ٤٠١.

(٣) انظر: المنتظم لابن الجوزي: ١٠/ ٣٢-وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب: ١/ ١٨٠ - وطبقات المفسرين للداودي: ١/ ٢٧٦.

(٤) انظر: صيد الخاطر لابن الجوزي: ١٤٠- وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب: ١/ ٢٠٤.

(٥)هو موفق الدين عبد اللّه بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، فقيه زاهد عابد مجاهد، قيل: كان أعلم أهل الشام في زمانه، له مصنفات مشهورة منها المغني في الفقه، توفي (٦٢٠ هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ٢٢/ ١٦٥ - وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب: ٤/ ١٣٣.

(٦) هو محمد بن محمود بن الحسن ابن النجار، مؤرخ حافظ للحديث، رحل في طلب العلم واستمر في رحلته (٢٧) سنة، اشتملت مشيخته على ثلاثة آلاف شيخ، له ذيل تاريخ بغداد، توفي (٦٤٣هـ) انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي: ٤/ ١٤٢٨-وشذرات الذهب=

مؤلفاته:

قال الحافظ ابن كثير عن الإمام ابن الجوزي أنه جمع المصنفات الكبار والصغار، ونحواً من ثلاثمائة مصنف، وكتب بيده نحواً من مائتي مجلدة.[١]

وقال سبطه أبو المظفر: سمعت جدي على المنبر يقول: بأصبعيَّ هاتين كتبتُ ألفي مجلدة..... إلى أن قال: ومجموع تصانيفه مئتان ونيِّف وخمسون كتاباً[٢].

وقد نالت مصنفات الإمام شهرة واسعة، وتلقتها الأمة في جملتها بقبول حسن، ولا زالت تعول على كثير منها، وهي متنوعة شملت كل الفنون، فله في التفسير والحديث والفقه والوعظ واللغة والتاريخ والسير وغير ذلك، ومنها أنه صنف في التفسير أربعة تصانيف، (المغني) وهو كتاب واسع مبسوط، و(زاد المسير) وهو كتاب وسيط، (وتيسير البيان) كتاب وجيز، و(تذكرة الأريب في تفسير الغريب) مقتصر على تفسير الغريب.

وله في علوم القرآن (فنون الأفنان) وغيره.

وفي الحديث صنف الكثير، منها (جامع المسانيد بألخص الأسانيد)

=لابن عماد: ٥/ ٢٢٦.

(٧) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ٢١/ ٣٦٧.

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير: ١٣/ ٣١.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ٢١/ ٣٧٠.

و(الضعفاء والمتروكين) و(الموضوعات) وغيرها.

وكتب في اللغة والتراجم والسير والتاريخ والمواعظ ومن ذلك: كتاب (صفوة الصفوة) (وصيد الخاطر) و(مناقب بغداد) وغيرها.

هذا وقد ألف الأستاذ عبد الحميد العلوجي كتاباً في مصنفات ابن الجوزي أسماه (مؤلفات ابن الجوزي) طبع في بغداد ١٩٦٥م شمل جميع ما كتبه الإمام، كما اهتم فضيلة الدكتور حسن ضياء الدين عتر، بذكرمؤلفات الإمام، المطبوع منها والمخطوط وأماكن وجودها في تحقيقه لفنون الأفنان للمصنف، فجزاهما اللّه خير الجزاء.

وفاته:

كان آخر ما خطه يراع الإمام ابن الجوزي من النظم أبيات عظيمة غلب عليها جانب الرجاء، وهي تدل على حسن ظنه باللّه:

يا كثيرَ العفو عمن ... كَثُرَ الذنبُ لديه
جاءك المذنبُ يرجو الـ ... ـصفحَ عن جُرمِ يديه
أنا ضيف وجزاءُ الـ ... ـضيفِ إحسان إليه

بقي الإمام مريضاً بعدها خمسة أيام إلى أن توفي ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء عام سبع وتسعين وخمسمائة للهجرة[1]، رحمه اللّه رحمة

(١) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٢/ ٣٧٩- وطبقات المفسرين للداودي: =

واسعة، وأدخله مُدخلاً كريماً.

ثانياً: التعريف بالتفسير والمقدمة:

يعتبر زاد المسير في نظر كثير من أهل العلم من أجلّ التفاسير التي وصلت إلينا من حيث سلامة عقيدة المصنف، ومن حيث المنهج والترتيب الذي سار عليهما المصنف في تفسيره، فقد حاول يرحمه اللّه تجنب ما وقع فيه أسلافه من عيوب في التصنيف، فتلافى ذلك بحسن العرض للأقوال والمعاني، وهو منهج سار عليه من قبله الماوردي المتوفى سنة (٤٥٠هـ) رحمه اللّه.

لقد حرص المصنف على أن يجعل تفسيره هذا مختصراً وافياً، حاوياً لما أثر عن رسول اللّه ﷺ، جامعاً لأقاويل علماء الصحابة ونبهاء التابعين، مشتملاً لما نقل عن السلف في بيان المعاني، ضم إلى ذلك القراءات القرآنية المشهور منها والشاذ، فجاء تفسيراً في غاية الإحكام والإتقان، وفي ذلك يقول المصنف: لا يعتقدن من رأى اختصارنا أنَّا أقللنا، فإنا قد أشرنا بما

=١/ ٢٨٠-وينظر للمزيد في ترجمته: البداية والنهاية لابن كثير: ١٣/ ٢٨-وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب: ١/ ٣٩٩-وسير أعلام النبلاء للذهبي: ٢١/ ٣٦٥-وشذرات الذهب لابن عماد الحنبلي: ٤/ ٣٢٩-وطبقات المفسرين للداودي: ١/ ٢٧٥- وطبقات المفسرين للسيوطي: ٥٠-وصيد الخاطر لابن الجوزي: ١٤٠-٢١٣-وفنون الأفنان لابن الجوزي، مقدمة المحقق.-ووفيات الأعيان لابن خلكان: ٣/ ١٤٠.

ذكرنا إلى ما تركنا ودللنا، فليكن الناظر في كتابنا متيقظاً لما أغفلنا، فإنا ضمنا الاختصار مع نيل المراد، وقد فعلنا.[١]

وقد تأثر ابن الجوزي في منهجه كما ذكرت بالماوردي، حتى أنه قد يصعب على القارئ التمييز بين منهجيهما، وطريقتهما في عرض الأقوال، وسرد المعاني.

أما من حيث المعاني فقد اعتمد ابن الجوزي كثيراً على شيخ المفسرين ابن جرير الطبري، وعلى ابن قتيبة في كتابيه (مشكل القرآن) و(غريب القرآن) كما اعتمد على غيرهما كالزجاج والفراء وأبي عبيدة وغيرهم، وهو يذكر أنه انتقى تفسيره من أنقى التفاسير، فأخذ منه الأصح والأحسن والأصون، ونظم ذلك في عبارة مختصرة[٢].

وقد كان المفترض من ابن الجوزي، وهو المفسر المحدث، تلافي ما وقع فيه السابقون من إيراد بعض الأحاديث الضعيفة والمنكرة، أو الاستشهاد بالإسرائيليات التي أغنانا الله عنها بما هو أصح، غير أن المصنف وقع في ذلك، وفي مواضع عديدة، وكان ذلك من أشد ما يؤخذ على المصنف، كما يؤخذ عليه عدم الترجيح بين الأقوال في الغالب، فهو حين يذكر المفردة القرآنية، أو الآية فإنه قد يذكر لها خمسة أقوال في بعض الأحايين، دون أن

---

(١) انظر: زاد المسير: ٩/ ٣٨٠.

(٢) انظر: زاد المسير: ١/ ٧.

يبين الراجح منها، أو الذي يميل إليه على أقل تقدير، وبذلك يترك القارئ حائراً لا يعرف الراجح من المرجوح.

وقد جاءت مقدمة (زاد المسير) على وفق ما ذكر المصنف من الاختصار والإيجاز، فسودت أربع صفحات ونصف من القطع المتوسط، تعرض المصنف فيها لعدة فنون من فنون علوم القرآن دون أن يتعمق في البحث، وما ذكره هو حصيلة أقوال أهل العلم السابقين عليه.

وقد طبعت المقدمة مع التفسير طبعة واحدة فيما أعلم، ثم تم تصويرها عدة مرات بأحجام مختلفة، واعتبر الناشر كل تصوير بمثابة طبعة مستقلة، وهي طبعة المكتب الإسلامي ببيروت: ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م، بعناية الأستاذ زهير الشاويش، وكانت الطبعة الرابعة مصغرة وهي التي اعتمدتها، وكانت في عام ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

ثالثاً: عرض موضوعات المقدمة:

افتتح المصنف كتابه بحمد اللّه، والثناء عليه، وإسداء الشكر له تعالى الذي شرف الأمة بخير نبي أرسله، جعله سراجاً منيراً، ولم يجعل له من أرباب جنسه نظيراً، وأنزل عليه الكلام الذي كان التحدي به.

ثم بين يرحمه اللّه أن شرف العلم من شرف المعلوم ولذلك كان علم القرآن من أشرف العلوم، وهو الأمر الذي دعاه إلى النظر في كتب التفسير التي تناولت بيان معاني كلماته فوجدها بين كبير يئس الحافظ منه، وصغير

لا يستفاد كل المقصود منه، فكان هذا المختصر اليسير الذي وسمه به (زاد المسير في علم التفسير) ورجا اللّه أن يكون قد أدى المطلوب.

ثم ذكر فصلاً في فضيلة علم التفسير، فأورد فيه ما روي من أنّ صحابة رسول اللّه ﷺ لم يكونوا يتجاوزون عشر آيات من كتاب اللّه، حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، كما بيَّن حرص الصحابة على معرفة كل ما يتصل بالقرآن من الأمور والأحوال التي تعين على فهم معانيه.

انتقل بعدها للموضوع الآخر وهو معنى التفسير والتأويل والفرق بينهما، فأورد اختلاف أهل العلم في ذلك بعبارة مختصرة، ذاكراً قول الجمهور.

ثم ذكر المدة التي نزل فيها القرآن على قلب النبي ﷺ مبيناً تعدد الأقوال في ذلك.

تعرض بعدها لذكر أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل، والخلاف في ذلك مع ذكر الروايات المبينة لها، مرجحاً بينها، وجاء الختام ببيان غايته من التصنيف في التفسير، واهتمامه بمسائل علوم القرآن، فذكر أن جمهور كتب المفسرين لا يكاد الكتاب منها يفي بالمقصود بمفرده، وأن المتابع يحتاج إلى التنقل بينها حتى يحصل مراده، وأنه بسبب ذلك أدرج في كتابه هذا جُلَّ تلك الفنون بحيث يستغني الناظر فيه عن غيره.

كما بين الخطوط الرئيسة لمنهجه، وأومأ إلى نوعية مصادره وقيمتها.

رابعاً: منهج ابن الجوزي في مقدمته:

أما منهج ابن الجوزي فإنه يذكر الروايات التي تتحدث عن الموضوع المطروح للبحث، مع التصريح بذكر الراوي أو القائل، وإن كان في المسألة خلاف أشار إلى ذلك وقد يرجح حينئذ بينها، وقد يكتفي بذكر الروايات دون الترجيح.[١]

خامساً: بيان مدى التزام المصنف في تفسيره بما ذكره في مقدمته:

نعت المصنف تفسيره بأنه تفسير وسط بالغ في اختصار ألفاظه، مرتب ترتيباً يسهل فهمه، أوضح الألفاظ المشكلة، وشرح الغريب منها. وهي كلها نعوت التزمها المصنف، فالتفسير كما ذكر من أجود التفاسير ترتيباً وتنسيقاً، وهو مختصر بعبارة موجزة، لا يتوانى المفسر من شرح غريب الألفاظ، وتوضيح المشكل، والأمثلة على ذلك كثيرة[٢].

هذا وذكر المصنف أنه أتى بما لم يأت به بعض المفسرين من إغفال لبعض المسائل والعلوم كالناسخ والمنسوخ، أو أسباب النزول، أو بيان المكي من المدني أو غير ذلك مما بيانه من مهام المفسر، ولا يستغني عنه

---

(١) انظر: زاد المسير: ١/ ٥.

(٢) انظر: زاد المسير: ١/ ١١٣-١٨٣-٣٣٧-٤٣٥.

التفسير.

وقد التزم المصنف هذه الشروط أيضاً في تفسيره، فهو يبين الناسخ والمنسوخ، ويذكر الأقوال في ذلك[١]، ويتحدث عن أسباب النزول[٢]، ويبين مكية السورة أو مدنيتها فيبين إن كانت السورة بتمامها مدنية، أو بتمامها مكية، أو أن بعضاً منها مكي والآخر مدني، أو العكس[٣].

ومن شروط ابن الجوزي أنه لا يعيد تفسير الكلمات التي سبق أن فسرها إلا على وجه الإشارة، وأنه لا يترك الأقوال المعتبرة بل يذكرها، وقد يترك فرش الآيات لأحد الأمرين، إما أن يكون قد سبق، أو يكون ظاهراً لا يحتاج إلى تفسير.

وهذه الضوابط التزمها المصنف في الغالب أيضاً، كما فعل في أول سورة آل عمران حيث أغفل تفسير الآية الأولى منها مكتفياً بما قال في البقرة من تفسير الأحرف المقطعات التي في أوائل السور، وكذا تفسير ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ من الآية نفسها مكتفياً بما ذكره في تفسير آية الكرسي.[٤]

سادساً: مصادره في المقدمة:

---

(١) انظر: زاد المسير: ١/ ٢٧٥-٣٠٥-٣٦٥.

(٢) انظر: زاد المسير: ١/ ١٣٣-٢١٨-٢٢٣.

(٣) انظر: زاد المسير: ١/ ١٩-٣٤٩-٢/ ٢٦٧.

(٤) انظر: زاد المسير: ١/ ٢٠و٣٤٩.

غالب النصوص والآثار التي استشهد بها المصنف جاءت معزوة لأصحابها، وهم في جملتهم من الصحابة والتابعين، كابن مسعود وابن عباس وجابر بن عبد اللّه وعكرمة والشعبي وغيرهم رضي اللّه عنهم أجمعين

أما مصادر المصنف من الكتب، فالمصدران الوحيدان اللذان وردا في مقدمة ابن الجوزي، هما صحيحا البخاري ومسلم، ذكر البخاري في موضعين، ومسلماً في موضعين قرن بينهما في أحد الموضعين، وأحال إليهما الروايات الواردة في أول ما نزل، وآخر ما نزل[1].

سابعاً: أهم المميزات وأظهر المآخذ:

مقدمة (زاد المسير في علم التفسير) من المقدمات المختصرة التي لم تخصص لما هدف إليه أصحاب المطولات من إثبات ما يلزم أن يكون في ذهن طالب العلم الناظر في التفسير حتى يفهمه على النحو الصحيح، فالمصنف قد أفرد لعلوم القرآن وأصول التفسير كتاباً مستقلاً، وما ذكره في هذه المقدمة تذكير بفضيلة التفسير ونزول القرآن، ولهذا الأمر لا يحسن الحكم على هذه المقدمة بالميزان الذي حُكم به على غيرها. واللّه أعلم

هذا ما عرفته عن تفسير ابن الجوزي، وأستغفر اللّه من التقصير أو

---

(١) انظر: زاد المسير: ١/ ٥-٦.

الخطأ في القول.

obeikandl.com

٩- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان

لأبي عبد اللّه محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْحْ الخزرجي الأندلسي القرطبي المتوفى سنة ٦٧١هـ

أولاً: التعريف بالمؤلف:

مؤلف هذا السفر العظيم هو: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح بسكون الراء والحاء المهملة الأنصاري الخزرجي المالكي، أبو عبد اللّه القرطبي.

ولد في قرطبة من بلاد الأندلس، ونشأ وترعرع في كنف أبيه ورعايته، ولم تشر المصادر التي وقفت عليها إلى سنة ولادته، غير أن أستاذي الدكتور علي بن سليمان العبيد حفظه ا لله وبارك فيه استدل من خلال نصوص وردت في ثنايا التفسير أن ولادته ربما كانت في بداية القرن السابع الهجري[١].

والذي يظهر من سيرة القرطبي رحمه اللّه أنه تلقى العلم في مقتبل العمر، فزاحم الركب، وأخذ عن جلة من العلماء، وصفوة من الأخيار

---

(١) انظر: تفاسير آيات الأحكام للدكتور علي بن سليمان العبيد: ١/ ٣١٣ رسالة دكتوراه كلية أصول الدين جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

المشاهير من أهل العلم والصلاح في وقته، من أهل قرطبة وما جاورها من منابر الإشعاع، ولازمهم حتى حصَّل ما عجز غيره عن تحصيله في القرآن والقراءات والحديث والنحو والفقه والبلاغة، وغيرها من علوم العربية، حتى كان عام ٦٢٧هـ حين قتل والده، وسقطت قرطبة في أيدي القشتاليين سنة ٦٣٣هـ قرر الرحيل، وترك مرابع الصبا، ليتوجه إلى الإسكندرية وليتم ما بدأه في دياره، فجلس إلى علمائها يتلقى العلم طالباً.

وقد عرف عن القرطبي الصلاح والتقى، والإكثار من العبادة والنوافل حتى ذكر المترجمون له بأن أوقاته كانت معمورة ما بين توجُّه وعبادة وتصنيف، وذكروا من مآثره البعد عن التكلف وما يشغل أهل الدنيا وطلابها، ومن نعوته أنه كان شيخاً صالحاً وقّافاً عند حدود اللّه، يحرص على السنة ويحارب البدعة والمبتدعين.(١)

شيوخه وتلاميذه:

يقول ابن خلدون: إن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم، وما ينتحلون به من المذاهب والأخلاق، تارة علماً وتعليماً وإلقاءً، وتارة محاكاةً وتلقيناً بالمباشرة، إلا أن حصول المَلَكات عن المباشرة والتلقين أشد

(١) انظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري: ٢/ ٤١٢-والديباج المذهب لابن فرحون: ٣١٧- وشجرة النور الزكية: ٢/ ١٩٧، وتفاسير آيات الأحكام ومناهجها للدكتور علي سليمان العبيد: ١/ ٣١٣.

استحكاماً، وأقوى رسوخاً، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها[١].

وقد تلقى القرطبي يرحمه اللّه ثقافته وعلمه من شيوخ أجلاء تأثر بهم، وتكونت شخصيته على أيديهم، وتحت أنظارهم، ومن هؤلاء: الشيخ أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي[٢]، والشيخ عبد العظيم بن عبد القوي المنذري[٣]، وغيرهم من شيوخ قرطبة ومصر والإسكندرية وغيرها.

والأمر الذي يدعو إلى الاستغراب في سيرة القرطبي رحمه اللّه أن لا يذكر له تلميذ واحد، سوى ما روى أن ابنه شهاب الدين أحمد قد روى عنه وبالإجازة.

وهو أمر يدعو إلى التعجب حقاً، وربما علل بعض الباحثين ذلك لانشغاله بأمر نفسه، وانصرافه إلى تلقي العلم ومجالسة العلماء، وتأليف

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ٤/ ١٢٤٥، تحقيق علي عبد الواحد.

(٢) هو أحمد بن عمر بن إبراهيم الأنصاري القرطبي، محدث مالكي، من كبار الأئمة في الحديث، اختصر الصحيحين، وألف المفهم في شرح صحيح مسلم، توفي (٦٥٦هـ). انظر: طبقات المفسرين للداودي: ٢/ ٧٠-وشذرات الذهب لابن عماد: ٥/ ٢٧٣.

(٣) هو عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد اللّه المنذري، حافظ حجة، برع في العربية والفقه والحديث حتى قيل: كان عديم النظير في معرفة علم الحديث، له مختصر مسلم وغيره، توفي (٦٥٦هـ)، انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي: ٦/ ١٤٣-وشذرات الذهب: ٥/ ٢٧٧.

الكتب، وإلى العبادة، إضافة إلى عدم مشاركته في أعمال القضاء والتدريس[١].

وهو تعليل لا يشفي الغليل، إذ كيف يترك عالم جليل دل كتابه الجامع لأحكام القرآن فضلاً عن موسوعاته الأخرى على علوٍّ كعبه في المنقول والمعقول، وسمو مكانته وتبحره في العلم، فمثله يهرع إليه طلبة العلم، ويجلسون على بابه لتلقي كلمة أو سماع أثر، بل كان الأمر يصل ببعضهم أن يعمل ما يزج به في السجن ليلتقي عالماً قد حكم عليه بالسجن فيأخذ عنه فيتحمل العذاب المضني لتلقي العلم، فكيف أغفله طلاب العلم ولم يتلقوا عنه؟!

وبالنظر إلى الفترة التي عاشها القرطبي في مصر، وما عُرف عنه يرحمه اللّه من مناهضة الرافضة والرد عليهم، وإشهار سيف الحق في وجوههم، وبيان زيفهم وانحرافهم وضلالهم[٢]، وكأنني وأنا أقرأ في سيرة القرطبي وشيئاً من مقدمته التي أفاض فيها التصدي للقوم ومواقفهم المخزية من القرآن الكريم، وكأنني أرى أنه منع نتيجة ذلك من التدريس ومنع عنه الطلبة فتفرغ للتأليف منعزلاً حتى أخرج لنا هذا التراث العظيم ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨]، فالتعليل الأقرب إذاً لعدم وجود

---

(١) انظر: تفاسير آيات الأحكام للدكتور علي بن سليمان العبيد: ١/ ٣١٣.

(٢) ينظر مقدمة التفسير للوقوف على بعض ردوده عليهم.

تلاميذ للقرطبي عائد والله أعلم إلى التسلط السياسي الذي مارسته الفئة الباغية على أهل العلم، وهو ما يسمى في عصرنا الحالي بـ(الإقامة الجبرية) فلا التدريس والتعليم مسموح به، ولا الهجرة والسياحة في الأرض مسموحة. ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

تصانيفه ومؤلفاته:

روى غير واحد عن الإمام الذهبي قوله في القرطبي: إمام متفنن متبحر في العلم، له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور عقله وفضله.(١). وصدق الذهبي فيما قال فإن المطَّلع على النتاج العلمي الذي خلّفه القرطبي ليشهد بقوة على هذه الحقيقة، فهي كالشمس في رابعة النهار.

ومن مؤلفاته:

١) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى.

٢) التذكار في أفضل الأذكار.

٣) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة.

٤) قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة.

---

(١) قاله الذهبي في تاريخ الإسلام، وانظره في نفح الطيب للمقري: ٢/ ٤١٤-وطبقات المفسرين للداودي: ٢/ ٦٩.

٥) شرح التقصي.

٦) الإعلام بما في دين النصارى وإظهار محاسن دين الإسلام.

إضافة إلى تفسيره الذي هو موضوع دراستنا هنا، وغير ذلك من التصانيف[١].

وفاته:

ولكل شروق غروب، ففي ليلة الاثنين، التاسع من شوال سنة ٦٧١هـ أفل نجم القرطبي ليلقى وجه ربه في النعيم المقيم إن شاء اللّه الغفور الرحيم، وكانت وفاته في منية ابن خصيب، مستقره من الصعيد الأدنى من ديار مصر، وهي المسمى حالياً ببلدة، المنيا [٢]رحمه اللّه رحمة واسعة.

---

(١) انظر: الديباج المذهب لابن فرحون: ٣١٧-وطبقات المفسرين للداودي: ٢/ ٦٩-ونفح الطيب للمقري: ٢/ ٤١٣-وهدية العارفين: ٦/ ١٢٩.

(٢) انظر: طبقات المفسرين للداودي: ٢/ ٦٩- وشذرات الذهب: ٥/ ٣٣٥.

وينظر للمزيد في ترجمته: تفاسير آيات الأحكام ومناهجها، للدكتور/ علي بن سليمان العبيد: ١/ ٣١٣، رسالة دكتوراه بكلية أصول الدين جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية. والتفسير والمفسرون، لمحمد بن حسين الذهبي: ٢/ ٤٥٧- والديباج المذهب، لابن فرحون: ٣١٧- والذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة-السفر الخامس-القسم الثاني: ٥٨٥- وشجرة النور الزكية، محمد مخلوف: ١٩٧-وشذرات الذهب، لابن عماد الحنبلي: ٥/ ٣٣٥- وطبقات المفسرين، للداودي: ٢/ ٦٩-وطبقات المفسرين، للسيوطي: ٢٨-ومن الجامع لأحكام القرآن، د/ محمد أديب الصالح: ٨- ونفح الطيب

ثانياً: التعريف بالتفسير والمقدمة:

حين سئل شيخ الإسلام ابن تيمية يرحمه اللّه عن خير تفسير بين تفاسير ثلاثة ذُكرت له، تفسير الزمخشري والقرطبي والبغوي، كان جوابه يرحمه اللّه- أن: تفسير القرطبي خير من تفسير الزمخشري، وأنه أقرب إلى طريقة أهل الكتاب والسنة،وأنه أبعد عن البدع.(١)

ولهذه المزية ولغيرها انتقاه العلماء وطلبة العلم، فطالما ارتووا من مورده العذب الزلال، وهو تفسير عظيم الشأن سار بذكره الركبان، وهو كما قال الذهبي: تفسير لا نظير له، فضله الأشياخ المتأخرون على أكثر ما بالأيدي من التفاسير.(٢)

والذي أراه أنه لو ادعى من اقتنى هذا التفسير الجليل من طلبة العلم أنه قد يستغني به عن غيره من التفاسير لما حقَّ لأحد أن يستنكر عليه قوله، فهو تفسير جامع شامل لجميع اتجاهات التفسير، من المأثور والرأي، لا يستغني عنه مغرم باللغة والنكات البلاغية، ولا فقيه باحث عن الأحكام القرآنية، ولا مهتم بالعقائد، فالكل يجد فيه بغيته ومبتغاه، ناهيك عن شيوخ

من غصن أندلس الرطيب، للمقري: ١/ ٤١٣-والوافي بالوفيات، للكتبي: ٢/ ١٢٢.

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣١/ ٣٨٧.

(٢) انظر: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة-السفر الخامس-القسم الثاني: ٥٨٥- ونفح الطيب للمقري: ٢/ ٤١٤ نقلاً عن الذهبي في تاريخ الإسلام.

القراءات الذين يعدون هذا السفر الجليل مرجعاً هاماً في فنهم، خاصةً في توجيه القراءات القرآنية.

ولهذه المزايا ولغيرها عدَّ المترجمون للقرطبي تفسيره هذا من أجلّ التفاسير وأعظمها نفعاً، فقد أسقط يرحمه اللّه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن مع استنباط الأدلة، كما ذكر القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ،[1] كل ذلك دون أن يخرج عن الهدف الذي رسمه وهو تفسير كتاب اللّه، وتوضيح ألفاظه، وبيان معانيه.

وقد تأثر القرطبي بسلفه ابن عطية تأثراً واضحاً، خصوصاً في تمحيص الآثار الواردة عن أهل الكتاب، وتلك التي هي محل نظر مما ابتليت به التفاسير عامة، ولهذا ذكر ابن خلدون أن القرطبي قد تأثر بابن عطية في منهجه وطريقته في هذا المنحنى[2].

هذا وقد استطاع المصنف بعبارته السهلة، وتقسيمه الدقيق للموضوعات، ومنهجه المتميز في هذا الشأن، أن يقدم للقارئ نصاً يرتاح معه، فلا يكلّ من دراسته، ولا يملّ النظر فيه، وهي الأخرى ميزة عظيمة لهذا التفسير الجليل.

أما ما يخص التعريف بالمقدمة فلا أظنني جانبت الصواب حين ادعيت

---

(١) انظر: الديباج المذهب: ٣١٧.

(٢) انظر: مقدمة ابن خلدون: ٣١٤ط دار المصحف القاهرة.

في مقدمة هذه الرسالة أن كثيراً من المفسرين ضمنوا مقدمات تفاسيرهم خلاصة أفكارهم، وزبدة آرائهم حول علوم القرآن، وأنهم بنوا هياكل تفاسيرهم على هذه الآراء.. ولا حين ادعيت أن من الأهمية دراسة هذه المقدمات دراسة تحليلية جادة، والغوص فيها لإبراز الدقائق العلمية في ثناياها.. لأنني كنت أعي وأعني ما أقول، فقد كنت على علم بكثير من هذه المقدمات، وعلى دراية بإحداها على الأقل، دراية تامة، طالما أشار إليها أساتذتنا الأفاضل، ونبه على أهميتها شيوخنا الأجلاء، أقصد بذلك مقدمة الجامع لأحكام القرآن، تلك المقدمة التي ما فتأت أرجع إليها بين الحين والحين في البحث الذي أعددته في المرحلة العلمية السابقة لهذه المرحلة.

لقد حوت مقدمة تفسير الإمام القرطبي خلاصة فكره حول كثير من علوم القرآن، عرضها بأسلوب يجمع بين الغزارة العلمية، والطراوة الأدبية، تبنى المصنف كثيراً مما نقله ممن سبقوه، وما لم يرتضه عقَّب عليه وناقش صاحبه وقدَّم أدلته ليفند حجج مخالفه، جمع فيه بين مأثور النصوص وقوة الاستنباط والتحليل.

إن هذه المقدمة تعد بحق من أوفى المقدمات التي وقفت عليها في علوم القرآن، من نشأة التفسير وحتى نهاية القرن الثامن الهجري وهي الفترة التي يتناولها هذا البحث جاءت في ست وثمانين صفحة من القطع المتوسطة، مسطرتها ٢٤/ ١٧، عدد الأسطر من ١٩إلى ٢٢ سطراً.

وقد جاءت هذه المقدمة قليلة الأخطاء بالنظر إلى الطبعات الأخرى

التي وقفت عليها.

أما عدد طبعات المقدمة فهي بعدد طبعات التفسير نفسه، فلم تطبع منفردة، ربما لأنه تيسر لهذا التفسير أن يطبع قبل مثيلاته، فلم تكن هناك حاجة لعزله عن أصله، أو ربما لأن عزله عن أصله يخلُّ ببعض ما فيه، فقد أراد المصنف أن يربط المقدمة بالتفسير ربطاً محكماً ليكتمل العقد، ولتتحقق الغاية التي لأجلها قدم هذه المقدمة. يدل على هذا أن المؤلف كثيراً ما يحيل قارئ المقدمة إلى صلب التفسير بقوله: وسيأتي مزيد بيان في سورة كذا[١]

بل قد يترك البيان كله فيقول: وبيان ذلك في سورة كذا..[٢] وكأنه يريد أن يقول: لا تغفل عن التفسير إنَّ فيه خيراً كثيراً، فهو بهذا العمل يريد أن تكون المقدمة والتفسير صنوان.

وهذا وقد طبع الكتاب عدة طبعات منها:

١) طبعة دار الكتب المصرية.

٢) طبعة دار الكتاب العربي- القاهرة ١٣٨٧هـ الطبعة الثالثة مصورة عن طبعة دار الكتب. قام بتصحيحه والتعليق عليه: أبو إسحاق إبراهيم أطيفش، وأحمد عبد العليم البردوني، ومصطفى السقا.

---

(١) انظر: مثال ذلك: ١/ ٢٠-٥٨-٨٦.

(٢) انظر: ١/ ٣٩-٤٩-٥٣-٥٩-٨٣.

٣) طبعة دار إحياء التراث - بيروت، الطبعة الثانية.

٤) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٨هـ، الطبعة الأولى.

ثالثاً: عرض موضوعات المقدمة:

قدم الإمام القرطبي بين يدي تفسيره مقدمة مطولة حوت تسع عشرة مقدمة جزئية باعتبار أن كل باب ذكره يعد بمثابة مقدمة مستقلة، هذا على سبيل الإجمال والإدماج، وإلا فإن الموضوعات التي طرحها للبحث والنقاش تربو على هذا العدد بقدر الضعف.

قدم المصنف تلك المقدمات بكلمة بليغة موجزة، غير أنها كافية ضافية، تحدث فيها عن بلاغة الكتاب المبين، وعلو قدر حفظته والعاملين به، ثم بين الباعث إلى التأليف والكتابة، والأمور التي اعتزم أن يضمنها تفسيره، وختم الكلمة ببيان شرطه في كتابه، ليبدأ بالتفصيل في الأبواب التي رأى أنه يحسن لطالب التفسير والمشتغل به الإحاطة بها، وهي:

باب: ذكر جمل من فضائل القرآن، والترغيب فيه، وفضل طالبه، وقارئه ومستمعه والعامل به:

بدأ المصنف هذا الباب بالحديث عن أهمية الموضوعات المطروقة، وعن فضل كلام الله تعالى، وأشار في ثنايا حديثه إلى أن علماء كثر كتبوا فيه تآليف مستقلة، كما أومأ إلى مسألة خلق القرآن غير أنه لم يفصِّل، واكتفى ببيان مذهب أهل السنة والجماعة بإيجاز، وحسنٌ فعَل. فالخوض في مثل

هذه المسائل يكون في موضعه من التآليف المختصة، ولا حاجة من طرقه في مثل المقدمات.

وذكر المصنف فضل اللّه سبحانه وتعالى وتكرمه حيث منَّ على الأمة الإسلامية بتيسير القرآن للذكر، فجعل الناس قادرين على حمله وحفظه حين عجزت السماوات والأرض عن حمله، ولولا هذا الفضل لما استطاع الإنسان حمله، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[الحشر: ٢١].

ثم ذكر في ختام هذا الباب جملة من الآثار الواردة في فضائل القرآن، ليختم الباب بقوله: والآثار في معنى هذا الباب كثيرة وفيما ذكرنا كفاية، واللّه الموفق للهداية.

باب: كيفية التلاوة لكتاب اللّه تعالى، وما يكره منها وما يحرم، واختلاف الناس في ذلك:

تعرض القرطبي لهذا الموضوع في ثماني صفحات، وذكر فيه نيفاً وعشرين حديثاً وأثراً، بدأه بالصحيح الذي رواه البخاري عن قتادة في وصف أنس ﷺ لقراءة النبي ﷺ بأنه كان يمد مداً.

وقد حلَّق المصنف في هذا الباب وسما في الذي ذكره، وأنهاه بعد أن أسبغ عليه الحلل، فما ترك مسألة بحاجة إلى نقاش إلا وقد أشبعها درساً حتى أقنع القارئ حجة.

ثم تحدث عن كيفية قراءة النبي ﷺ فأورد من الأثر الصحيح ما لا يحتاج معه إلى مزيد بحث،وعن حسن صوت من قرأ وهو يخشى اللّه،وشين رفع الصوت والتطريب بالقراءة والنبر،خاصة من كان حادَّ النبرات رفيع الصوت منكره.مدعماً ما ذكره بالأدلة،وذاكراً من كرهوا ذلك من الأئمة.

ثم عاد مرة أخرى إلى ما ذكره أولاً من كراهية رفع الصوت والتطريب فذكر الخلاف في المسألة بين مجيز ومانع،ذاكراً أدلة ذلك والقائلين بكل قول، دون أن يبخسهم حقهم في العرض والبيان،حيث عرض الأدلة بأمانة وصدق،حتى إن القارىء حين يقرأ له وهو يورد أدلة مخالفيه يذهب به الظن إلى أن المصنف يتبنى هذا الرأي،وبمثل هذه المواقف التي يقفها القرطبي بين الفينة والفينة،كان الحق في جانب أولئك الذين ينفون التعصب المذهبي عن القرطبي،ويذكرون أنه إنما يتبع الدليل بغض النظر عن قائله ومذهبه.

فهو حين ذكر أدلة المجيزين سماهم،وذكر منهم أرباب الفصاحة وفرسان البيان،ومن شهدت لهم الأمةبالإمامة كأبي حنيفة والشافعي وابن المبارك والطبري وابن بطال[1]والقاضي المالكي ابن العربي،وغيرهم.وكل واحد ممن ذكره يكفي بنفسه أن يرفع بسهم الطائفة عالياً،فكيف بهم

---

(١) هو علي بن خلف بن بطال البكري القرطبي ،محدث من أهل العلم والمعرفة،شرح صحيح البخاري،توفي (٤٤٩هـ).انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٨/ ٤٧ - والديباج المذهب لابن فرحون: ٣٠٢.

مجتمعين!!

أقول هذا لأدلل على قوة القرطبي في اختياراته،فهو مع الدليل،ولهذا ظهر رسوخ قدمه،وعلو كعبه حين أعلن بعد أن ذكر أدلة المجيزين،وهم من هم،أعلن أنه يرى كراهية التطريب،وأنه الأصح من الأقوال مدللاً ومعللاً لما ذهب إليه،وأن تزيين الصوت يكون بقراءة القرآن،وليس تزيين القرآن بالصوت الحسن كما يراه المخالفون،ورد على المخالفين بأدلة قوية.

كما رأى أن التغني هو تحسين الصوت بالقرآن،ليس التطريب،أو أن يكون بمعنى الاستغناء ضد الافتقار،وهو التأويل الذي ارتضاه سفيان بن عيينة[1]،ووكيع بن الجراح[2]،وهو المروي عن سعد بن أبي وقاص.أو يكون بمعنى الاستغناء به عن سواه من الأحاديث،وهو مذهب البخاري صاحب الصحيح...

وهكذا نقل ما تأوله العلماء في معنى التغني،فذكر منها التحزن به الذي هو إظهار الحزن ضد السرور،وذكر حسن الصوت بالترجيع،أو أنه بمعنى الجهر بالقرآن.

---

(١)هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي،ثقة ثبت حافظ فقيه،تغير حفظه بأخرة، توفي (١٩٨هـ).انظر: طبقات القراء لابن الجزري: ١/ ٣٠٨، وميزان الاعتدال للذهبي: ٢/ ١٧٠.

(٢) هو وكيع بن الجراح بن مليح بن عدي الكوفي ،إمام حافظ،كان من بحور العلم وأئمة الحفظ،توفي (١٩٧هـ)انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ٩/ ١٤٠- وشذرات الذهب لابن عماد: ١/ ٣٤٩.

ثم انتقل إلى الحديث عن الترجيع،وصفته،وعلل دعوى أن النبي ﷺ رجَّع في قراءته،بأنه محمول على إشباع المد في موضعه،أو أنه حكاية عن صوته عند هزِّ الراحلة.وصرح أثناء حديثه بأن المبالغة في الترجيع والترديد حرام لكون من يفعل ذلك إنما يقصد به الزجر والجوائز،كالذي يقرأ أمام الملوك والجنائز،فضلّل سعيهم،وخيب عملهم،وأنكر عليهم بشدة استحلالهم تغيير كتاب اللّه،والاجتراء عليه سبحانه لأجل غرض زائل من الدنيا،يزينه الشيطان لهم،وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وهم في غيِّهم يترددون،وبكتاب اللّه يتلاعبون،وصدق الصادق المصدوق،بأن ذلك سيكون: « اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها،وإياكم ولحون أهل الفسق ولحون أهل الكتابين، وسيجيء قوم يرجِّعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح،لا يجاوز حناجرهم،مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم ».[1]

وأنهى القرطبي الباب بتعريف اللحن والترجيع والترتيل ليختمه بالأثر الوارد في نعت قراءته ﷺ بأنها كانت مفسرة حرفاً حرفاً.ولأن حفظ كتاب اللّه،وحسن الصوت قد يلقي في النفس البشرية شيئاً من الإعجاب، وحظوظ النفس،وخشية أن ينقلب ذلك إلى الرياء والعياذ باللّه فيضيع

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب: ح(٦٤١)، ٣/ ١٠٨٧)والمروزي في قيام الليل،انظر المختصر: ١١٩،وأبو عبيدفي فضائله: ح٢٣٢ص٩٩،والهيثمي في المجمع: ٧/ ١٧٩ونسبه للطبراني وقال: وفيه بقية وراو لم يسم.

الأجر،خصص يرحمه اللّه الباب الثاني للتحذير من ذلك وغيره.

باب: تحذير أهل القرآن من الرياء وغيره:

روي عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن رسول اللّه ﷺ قال: « لا تخادع اللّه،فإنه من يخادع اللّه يخدعه اللّه،ونفسه يخدع لو يشعر » .قالوا: يا رسول اللّه، وكيف يخادع اللّه؟ قال: « تعمل بما أمرك اللّه به، وتطلب به غيره، واتقوا الرياء فإنه الشرك،وإن المرائي يدعى يوم القيامة على رؤوس الأشهاد بأربعة أسماء ينسب إليها: يا كافر،يا خاسر، يا غادر،يا فاجر،ضلّ عملك، وبطل أجرك،فلا خلاق لك اليوم،فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يا مخادع » .

هذا باب عظيم،وخطره جسيم،وقد أحسن القرطبي رحمه اللّه عملاً حين أفرده بباب مستقل،ولم يكتفِ بما يمكن التحدث به من أمر التحذير من الرياء في صلب التفسير،كما أشار إلى ذلك.

استهل القرطبي رحمه اللّه هذا الباب الذي جاء في ثلاث صفحات،لتقرير ما ضمنه بقوله تعالى ﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلا تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً﴾[النساء: ٣٦]،وقوله ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف: ١١٠] ليشير بذلك إلى أن من تعلم العلم وعلَّمه،وقرأ القرآن وأقرأه،ليقال عالم وقارىء للقرآن قد ارتكب إثماً عظيماً،ولهذا استحق مرتكبه أن يسحب في النار على وجهه حتى يُلقى في

النار.

وأورد - رحمه اللّه - من الأحاديث والآثار ما يؤكد هذا المعنى،ويحذر القراء من الغرور والرياء الذي قد ينفد إلى النفس فيعرّض صاحبه للخطر،ويحرمه من عُرْف الجنة،ويدخله جُب الحَزَن يوم القيامة.

وانتقل بعد هذا ليقدم العلاج الذي يقي القارىء من الوقوع في المهالك،فيذكره أولاً وآخراً بتقوى اللّه بأن يتقي اللّه في نفسه،ويخلص العمل للّه،ويوجه من أصابه شيء مما يكره إلى الإسراع في التوبة والإنابة إلى اللّه،وأن يبدأ بالإخلاص في الطلب والعمل.وليؤكد أن هذا الأمر خير له،أورد من الأثر ما يؤكد أن على قارىءالقرآن وحامله أن يتحفظ أكثر من غيره لأن له من الأجر أكثر من غيره.

وختم بوعد للقارىء بمزيد بيان مما يتعلق بالموضوع في صلب التفسير.

باب: ما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به، ولا يغفل عنه:

أكد القرطبي في هذا الباب أن أهم ما ينبغي لصاحب القرآن الأخذ به،وعدم الإغفال عنه هو الإخلاص للّه.

بدأ الباب بالتنبيه إلى ذلك، وختمه بالتأكيد على إخلاص النية للّه أولاً وآخراً،وبين البداية والختام ذكر جملة من الصفات التي يجب على حامل القرآن أن يتحلى بها،كالقراءة في الليل والنهار،في الصلاة وخارجها،وكالشكر للّه،والخوف من ذنوب النفس،والرجاء في عفو اللّه

ومراقبته جلت قدرته في أوامره ومناهيه،والاتصاف بالحلم والأناة والوقار... وغير ذلك من صفات الكمال.

ثم شرع المصنف في ذكر المسائل العلمية التي ينبغي لقارىء القرآن معرفتها كالمكي والمدني، والإعراب،واللغة،وغير ذلك من العلوم المطلوبة.

يريد بذلك التأكيد على أن العلم لا ينتفع به إن لم يصحبه خلق وأدب وإخلاص للنية، كما أن تلك النعوت الحميدة لا تنفع صاحبها إذا كان مجرداً عن العلم خاوياً.فما أقبح لحامل القرآن الذي يتلو فرائضه وحدوده وأحكامه وهو لا يفهم معنى ما يتلوه،إذ كيف يعمل بما لا يفهم معناه!!

بعدها ختم المصنف هذا المبحث حيث أرشد طالب العلم الذي يريد بعلمه المباهاة والشرف في الدنيا إلى تغيير النية لينتفع بما تعلم، (كنا نطلب العلم للدنيا،فجرنّاً إلى الآخرة).

باب: ما جاء في إعراب القرآن وتعليمه والحث عليه،وثواب من قرأ القرآن معرباً:

عشرون أثراً عن النبي ﷺ وصحابته والتابعين أوردها القرطبي في هذا الباب،الذي جاء في ثلاث صفحات،حثت كلها على تعلم الإعراب والعربية،ودلت بمجموعها على ذم اللحن وكراهيته،مما يوجب على قراء كتاب اللّه وحفظته أن يأخذوا أنفسهم بالاجتهاد في تعلمه.

وقد دعَّم القرطبي ما ذكره قبل أن يختم هذا المبحث بالأمثلة التي تؤكد

المعنى المراد،وكيف أن اللحن يغير المقصود،وبين كيف أن الصحابة فهموا مراد اللّه بما أوتوا من العلم بالعربية وبأشعارها،وأن الشعر ديوان العرب لا ينبغي إغفاله.

باب: ما جاء في فضل تفسير القرآن وأهله:

علي بن أبي طالب - رضي اللّه عنه - وهو من هو في علوِّ منزلته، وعظيم قدره،يذكر عنده جابر بن عبد اللّه - رضي اللّه عنه - فيصفه بالعلم مثنياً عليه، فيقوم رجل مستغرباً يقول: جُعلتُ فداءك، تصف جابراً بالعلم وأنت أنت؟! فيقول كرم اللّه وجهه معللاً: إنه كان يعلم تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾[القصص: ٨٥].

استدل القرطبي بهذا الأثر وسبعة آثار أخرى عن الصحابة والتابعين وهي مجموع ما أورده في هذا الباب على فضل التفسير، ومكانة المفسر،وعلو منزلته وقدره.

وقد جاء هذا الباب موجزاً بخلاف المباحث السابقة،حيث اقتصر المصنف على ما لم يذكره سابقاً.

باب: ما جاء في حامل القرآن، ومن هو، وفيمن عاداه:

سبق أن حذر المصنف قارىء القرآن من الرياء والغرور في باب خاص، وعاد ليثبت في هذا الباب أن من امتثل ذلك من القراء،وابتعد عن

الرياء حقاً استحق الفوز في الدنيا بإكرام الناس لـه،والخـوف والخشـية مـن معاداته،وفي الآخرة بالنعيم المقيم،وقد جاء هذا البـاب في أقـل مـن نصـف صفحة.

باب: ما يلزم قارىء القرآن وحامله من تعظيم القرآن وحرمته:

كان عمدة القرطبي في هذا الباب هو الحكيم الترمذي،فقد نقل عنه ما أورده في نوادره من آداب التلاوة،وقد استغرق هذا النقـل أربـع صفحـات احتوى على أكثر من أربعين أدباً من آداب التلاوة،وما يلزم حـامل القـرآن من تعظيمه وحرمته،وبعد أن أنهى نقل مـا ذكـره صـاحب نـوادر الأصـول أتبع ذلك باستدراك ما قد فاته من تلك الآداب كاستحباب جمع الأهل عند ختم القرآن،وكراهية اتخاذ التعاويذ وغير ذلك.

ولم يكن القرطبي رحمه اللّه مجرد ناقل في ذكره لتلك الآداب،بـل تجـده يتدخل في المنقول بالتعقيب حينـاً وبالمناقشـة حينـاً آخـر، فيخـالف الحكيـم الرأي مدللاً على ما ذهب إليه بما ثبت، وهو مسلك حسن يُذكر للمصنـف فيشكر.

وقد شمل هذا الباب ثلاثة أمور:

الأول: الآداب المطلوبة قبل البدء في التلاوة،كاستحباب الاستياك قبل البدء،واتخاذ الزينة، واستقبال القبلة وغير ذلك.

الثاني: ما يستحب أثناء التلاوة، وما يكره،فذكر للأول القراءة المرتلة واستعمال الذهن وغير ذلك،وذكر للثانية كراهية قطع القراءة بكلام الآدميين وغير ذلك.

الثالث: آداب عامة لتعظيم القرآن، كتحريم توسُّد المصحف،وتحريم كتابته على الأرض وغير ذلك.

باب: ما جاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأي، والجرأة على ذلك، ومراتب المفسرين:

القارىء لهذا الباب يلاحظ للوهلة الأولى أن المصنف اتكأ على ابن عطية رحمه اللّه فيما أورده في مقدمة تفسيره حول هذا الموضوع،وكأن لسان حاله يقول: لم يترك هذا المفسر شيئاً أريد ذكره إلا سبقني إليه،ولا شك أن نقل القرطبي عن ابن عطية على هذا النحو، واعتماد كثير من آرائه يعد بحق شهادة للأول برسوخ القدم وعلو الكعب في تلك العلوم.

جاء هذا الباب في أكثر من خمس صفحات،أشار المصنف في بدايته إلى أن الرسول ﷺ لم يفسر من القرآن إلا آي بعدد، علمه إياهن جبريل،ووقف بذلك مع جمع غفير من المفسرين الذين رأوا أن الرسول ﷺ بين ما احتاج إليه الصحابة من المعاني،وما استشكل عليهم من الألفاظ وتعذر فهمها، وأن ما سوى ذلك تركه لاجتهادهم ولغتهم وفهمهم.

وما ذهب إليه المصنف فيه إشارة وإيحاء إلى جواز التفسير بالرأي،وهو

أمر يعارض ظاهر جملة من النصوص الواردة في التحذير من القول في القرآن بمجرد الرأي، لذلك ذكر القرطبي جملة من تلك الآثار مع تأويلات ثلة من العلماء من الصحابة وغيرهم لها،وانتهى إلى أن الراجح هو أن التحذير وارد بحق من قال في القرآن قولاً يعلم أن الحق غيره، أو قال قولاً يوافق فيه هواه.

بعد هذا ذكر رحمه اللّه شيئاً من شروط التفسير بالرأي، كأن يملك الأدوات اللازمة للتفسير،وأن يكون تفسيره عن علم ونظر فيما قاله العلماء، واقتضته قوانين العربية، لا أن يتسور على كتاب اللّه برأيه بغير بصيرة ولا تدبر،فيضل بنفسه ويضل غيره.

ولأنه قد يفهم بعضهم أن التفسير كله موقوف على السماع فهماً منهم لقوله تعالى ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[النساء: ٥٩] لذلك ردَّ المصنف على هذا الفهم وبين وجه الحق وعاد ليؤكد من جديد أن النهي في التفسير بالرأي محمول على وجهين:

١) أن يكون له في الشيء رأي،وإليه ميل في طبعه وهواه، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه، ليحتج على تصحيح غرضه.

وفصَّل القول في هذه المسألة تفصيلاً بين فيه جميع احتمالات الرأي والميل إليه. وحذر من هذا الأمر، كما أكد على أن ذلك من دأب الباطنية لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذاهبهم الباطلة،فينزلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم،وهم يعلمون أنها غير مرادة.

٢) أن يفسّر كتاب اللّه بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن.

وصرح بأن سوى هذين الوجهين لا يتطرق النهي إليه،غير أنه يبقى مسألة في غاية الأهمية وهي:

هل كل من ملك هذه الشروط،جاز له أن يفسر كتاب اللّه ويقول فيه برأيه؟

ذكر المصنف تحرج بعض السلف من ذلك، وأنهم كانوا يحجمون عن القول في كتاب اللّه، ويتوقفون تعظيماً للقرآن،واحتياطاً لأنفسهم، مع أنهم كانو يملكون أدوات القول بالرأي.وذكرهذا مقولة أبي بكر الصديق رضي الله عنه المشهورة: أي سماء تظلني،وأي أرض تقلني،وأين أذهب، وكيف أصنع،إذا قلت في حرف من كتاب اللّه بغير ما أراد اللّه تبارك وتعالى.

وأنهى المصنف الباب بالحديث عن التفسير والمفسرين،فذكر من المفسرين في الصدر الأول ثلة، وجماعة من المشهورين من بعدهم الذين تتلمذوا على أيديهم، ومن جاء بعدهم،إلى أن ذكر من ألف في التفسير كتباً مستقلة ممن ذكرهم ابن عطية في تفسيره من المجتهدين.

باب: تبين الكتاب بالسنة، وما جاء فيه:

لما بين المصنف في الباب السابق أن الرسول ﷺ لم يفسر من القرآن إلا آي بعدد، وأجاز لذلك التفسير بالرأي المبني على العلم، خشي أن يعدل

البعض عن بيان رسول اللّه ﷺ فيفسر القرآن برأيه،لذا خصص هذا الباب للحديث عن وجوب طاعة رسول اللّه ﷺ واتباعه فيما أمر وبيَّن،ومن ذلك ما ورد عنه ﷺ من تفسير لبعض الكلمات والآيات القرآنية،فإن الأخذ به واعتماده واجب،كما أن العدول عنه عدول عن اتباع الحق الذي لا مراء فيه.

وقد جاء هذا الباب في أكثر من صفحتين،سرد المصنف في أوله جملة من الآيات الدالة على لزوم اتباعه ﷺ، والتحذير من مخالفته،ثم ذكر شيئاً من الآثار الواردة عن صحابة رسول اللّه ﷺ بينت التزامهم بما ورد عنه ﷺ في بيان الآيات الكريمات.

بعد هذا بين أهمية اتباع السنة،وأن مخالفتها تؤدي إلى الضلال،كما حدث للخوارج والروافض الذين تعلقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن.

وصرح المصنف أن بيان السنة لكتاب اللّه كان على ضربين:

١) بيان لمجمل ما في الكتاب،كبيان الصلوات الخمس وأوقاتها... إلخ.

٢) بيان زاد به على حكم الكتاب، كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها..

ثم تحدث عن مسألة احتياج القرآن إلى السنة،أو السنة إلى القرآن، وأيهما القاضية.

باب: بيان كيفية التعلم والفقة لكتاب اللّه تعالى وسنة نبيه ﷺ
وما جاء أنه سهل على من تقدم العمل به دون حفظه:

أشار المصنف في هذا الباب إلى مسألتين:

الأولى: أن الصحابة رضي اللّه عنهم تعلموا العلم والعمل معاً، فلم يكونوا ليتجاوزوا القدر الذي يحفظونه حتى يعملوا به،وجاء هذا القدر في قول بعضهم عشر آيات،وأورد من أقوال الصحابة ما يؤكد هذا المعنى.

الثانية: أن من فضل اللّه على الصحابة رضوان اللّه عليهم أن يسر لهم العمل بما في كتاب اللّه،وإن وجد بعضهم صعوبة في حفظ بعض ألفاظه.

ولهذا الأمر حث القرطبي في نهاية هذا الباب على ضرورة اتباع الإرشادات السليمة التي تجعل الإنسان يعمل بما في الكتاب ليتعلم العلم والعمل معاً،وجاء ختام هذا الباب بنظم رائق ورد في بيان أجلّ العلوم وأنفعها.

باب: معنى قول النبي ﷺ: « إن هذا القرآن
أنزل على سبعة أحرف،فاقرأوا ما تيسر منه » :

نزول القرآن على سبعة أحرف مبحث عظيم،كثر في بيان مفهومه التأويلات،واشتد الخلاف حتى أفرده بعضهم بتآليف مستقلة،بل إن ابن حبان البستي ذكر في بيان معناه خمسة وثلاثين قولاً.

وقد شغل هذا المبحث عند القرطبي ثمان صفحات من مقدمته،ذكر فيها الخلاف حول معنى الأحرف السبعة،مقتصراً على إيراد خمسة من تلك الأقوال التي ذكرها البستي،مورداً دليل كل قول،ذاكراً من قال به من العلماء، ومن تبناه،ثم الرد عليهم.

ولأن كثيراً من العامة،بل حتى بعض طلبة العلم يستشكل عندهم الأمر عند ذكر المسألة،فينصرف ذهنهم إلى القراءات السبع،ولا يفرقون بينها وبين تلك القراءات المنسوبة لأئمة القراءات،لذلك أفرد المصنف فصلاً خاصاً مستقلاً لدفع هذا الإشكال،وبيان أن القراءات السبع راجع إلى حرف واحد من الأحرف السبعة،وهو الذي جمع عليه عثمان ﷺ المصحف.

كما أكد في ثنايا حديثه عدم قرآنية القراءات الشاذة،وأنها في أحسن محاملها تأويل لمن ينسب إليه القراءة.

وأفرد المصنف فصلاً مستقلاً للحديث عن الاختلاف في قراءة بعض الصحابة،وإقرار النبي ﷺ لكل واحد بأنها نزلت وفق قراءته،كالمشهور المروي عن عمر وهشام رضي اللّه عنهما أراد بذلك التأكيد على معنى هام هو ما أشار إليه ابن عطية رحمه اللّه حيث نبه إلى أن اللّه سبحانه أباح لنبيه ﷺ هذه الحروف السبعة، وعارضه بها جبريل عليه السلام على الوجه الذي فيه الإعجاز، ولم تقع الإباحة في قوله: « فاقرأوا ما تيسر منه » .بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يبدل اللفظة من بعض هذه

اللغات جعلها من تلقاء نفسه،إذ لو كان هذا لذهب إعجاز القرآن، ولكان فيه ما نزل من عند غير اللّه، وإنما الإباحة وقعت في الحروف السبعة ليوسع بها على أمته،فأقرأ مرة لأبيّ بما عارضه جبريل، ومرة لابن مسعود بما عارضه جبريل أيضاً، وهكذا، ولو كان التبديل لكل أحد لبطل معنى قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقد أنهى الباب بما يزيل الريب والشك الذي قد يحصل في بعض النفوس بسبب هذا الاختلاف، حيث أورد ما روي أن بعض الصحابة رضي اللّه عنهم سألوا رسول اللّه ﷺ بأنهم يجدون في أنفسهم ما يتعاظم أحدهم أن يتكلم به. فقال ﷺ: « وقد وجدتموه؟ » قالوا: نعم. قال « ذلك صريح الإيمان » . يريد بذلك أن ما اعتراهم من الحيرة والدهشة أن منشأها نزعة من الشيطان.

باب: ذكر جمع القرآن،وسبب كتب عثمان المصاحف وإحراقه ما سواها، وذكر من حفظ القرآن من الصحابة رضي اللّه عنهم في زمن النبي ﷺ:

ديدن أعداء الإسلام البحث عن منفذ ينفذون منه للطعن في دين اللّه،ولأنه كثر الحديث حول جمع عثمان للمصاحف، وإحراقه ما سواها،ووجود بعض الأدعية، وما ليس بقرآن في مصاحف بعضهم،فقد حسب أعداء الإسلام من الفرق الضالة، والنحل الهدامة، أن في هذا الأمر منفذاً للطعن في صحة نقل القرآن، وهي مسألة تصدى لها أعلام علماء،

قبل القرطبي وبعده، وقد نال قصب السبق والريادة في هذة المسألة الباقلاني - رحمه اللّه - وأدلى القرطبي بدلوه فيها على عجالة بقدر ما يسمح به في مثل هذه المقدمة،بياناً لأهمية الأمر، وعظيم خطورته، فذكر الأدلة المؤكدة لمذهب أهل السنة والجماعة، وسلامة كتاب اللّه من الزيادة والنقصان ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقد استهل المؤلف هذا الباب بذكر الداعي إلى جمع القرآن وكتابته زمن الصديق أبي بكر ﷺ لما استحرَّ القتل بالقراء، وكيف تم تكليف زيد بن ثابت بالجمع،وما أحيط بالتكليف من إشكالات وملابسات،ثم ذكر الجمع الآخر الذي جاء على يد عثمان بن عفان ﷺ بإشارة من حذيفة بن اليمان ﷺ خوف الاختلاف والتنازع.

ولأنه استشكل على بعضهم تكليف زيد بالجمع وابن مسعود سابق عليه، تطرق القرطبي لهذا الإشكال، وأورد من الجمع ما يفيد أن الاختيار كان موفقاً، وأن تكليف زيد لا يعني البتة الحط من قيمة ابن مسعود، الذي شهد له الجميع بالأسبقية والأفضلية،وإنما هو الحفظ، فبينما حفظ زيد القرآن كله زمن النبي ﷺ، فإن ابن مسعود على الأرجح من الأقوال أنه لم يحفظه كاملاً عن ظهر غيب إلا بعد وفاته ﷺ.

بعد هذا تحدث المصنف عن عدد المصاحف التي أمر عثمان ﷺ بنسخها وإرسالها إلى الأمصار، والاختلاف الواقع في عدد تلك المصاحف، وفي كتابتها، ومصير المصاحف السابقة، ولكون عثمان ﷺ قد أمر أن تحرق

بقية المصاحف، وجد القرطبي مجالاً للحديث عن مسألة حرق المصحف، وما فيه لفظ الجلالة،أو آيات من القرآن الكريم، وخشية من أن يقع في النفس شيء من حرق المصحف، أورد المصنف من أقوال السلف ما ينفي أية تهمة عن عثمان ﷺ الذي أمر بالحرق.

وقد تصدى القرطبي في هذا الباب للفرق الهدامة، كالحشوية والحلولية، القائلين بقدم الحروف والأصوات، وأن القراءة والتلاوة قديمة، حيث جعل من فعل عثمان ﷺ وإجماع الصحابة على سلامة عمله، ما يفند به مزاعم الطائفة الضالة، ويدحض حججهم، ويردهم بالدليل على أعقابهم خاسرين.

كما تصدى للرافضة، الذين رأوا أن في قول زيد بن ثابت عندما كلف بجمع المصحف: حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري، لم أجدهما مع غيره.ما يفيد بأن خبر الواحد يكفي في نقل الآية والحرف، فردَّ عليهم،وأورد الإجماع في ذلك،ليبطل مقصدهم في تأييد انحرافات مذهبهم في هذا الباب.

وختم الباب بذكر أسماء من جمعوا القرآن، وحفظوه على عهد رسول اللّه ﷺ.

باب: ما جاء في ترتيب سور القرآن، وآياته، وشكله، ونقطه،وتحزيبه،وتعشيره، وعدد حروفه، وأجزائه، وكلماته، وآيه:

قسم القرطبي هذا الباب إلى عدة فصول، خص كل موضوع بفصل مستقل، استهله بالحديث عن ترتيب السور والآيات ليقرر بعد أن أورد الأدلة توقيف ذلك الترتيب على رسول الله ﷺ.

ثم ذكر مصاحف الصحابة واختلاف تلك المصاحف في الترتيب، وأورد من أقوال الأئمة ما يجب معها اتباع ترتيب المصحف الذي جاء هكذا من رب العزة، وأكد أنه لا التفات إلى تاريخ النزول ما دام أن اللّه سبحانه قد ارتضى لكتابة هذا الترتيب.

وتطرق إلى مسألة قراءة القرآن منكوساً، وهو مبحث كان موضعه آداب التلاوة لولا أن الاختلاف في ترتيب السور جعل القرطبي يذكره هنا أيضاً، كما بين أن كون ترتيبه توقيفياً لا يعني أن القراءة والحفظ على الترتيب نفسه، إذ حكم التلاوة والحفظ مختلف عن حكم الترتيب.

بعدها تطرق المصنف للمكي والمدني من السور، فعرف بهما، وذكر السور المدنية بأسمائها المشهورة، ثم أعلن أن ما عداها مكي بالطبع.

وفي الفصل الثاني خص الحديث عن شكل المصحف ونقطه، وذكر أول من أمر بذلك، والخلاف فيه.

كما خص التعشير والتحزيب بحديث مستقل، ذاكراً أول من عشَّر القرآن وحزَّبه،ومن أمر بذلك، ومن كرهه من الصحابة، ومن أجازه.

ثم انتقل للحديث عن حروف المصحف وأجزائه وأشار إلى أن في مصنف أبي عمرو الداني المسمى(البيان) تفصيل ما أجمله هنا.

وكان الفصل الأخير لكلمات القرآن وعدد آياته وحروفه، ذكر فيه العدد المدني الأول والأخير، وعد المكيين والكوفيين،معرفاً بهم، وعد البصريين والشاميين، وأنهى الباب بذكر الخلاف في عدد الكلمات والحروف.

باب: ذكر معنى السورة، والآية، والكلمة، والحرف:

جاء هذا الباب في ثلاث صفحات، خصها جميعها لبيان معاني مدلول الكلمات الأربع: السورة، الآية،الكلمة،الحرف. فعرف بها لغة ثم اصطلاحاً، وذكر ما يتعلق بها من اختلاف بين النحويين، وفي بيان معنى الكلمة ذكر أطول كلمة في كتاب اللّه،وأقصر كلمة، وإمكانية أن تكون الكلمة الواحدة آية مستقلة، وأنهى الباب بالحرف، والعلاقة بين الحرف والكلمة، وما يواكب هذه العلاقة من إشكالات.

باب: هل ورد في القرآن كلمة خارجة عن لغات العرب أو لا؟

أثبت المصنف رحمه اللّه أن الأئمة متفقون على أنه ليس في القرآن كلام مركب على أساليب غير العربية، وأنهم متفقون على أن في القرآن

أسماء أعلام لمن لسانه غير لسان العرب.

ثم تعرض بعد هذا إلى ما يمكن أن يكون موضوع الخلاف، وهو هل وقع في القرآن الكريم ألفاظ من غير كلام العرب - غير الأعلام - فذكر أن الخلاف أنشأ فريقين:

الأول وفيهم القاضي أبو بكر الباقلاني، والإمام ابن جرير الطبري،قالوا: إن القرآن عربي صريح، ليس فيه ما هو غير عربي،وما وجد من ألفاظ يشبه أنها غير عربية فإنما هي مما تواردت عليه اللغات.

والفريق الثاني رأوا في القرآن ألفاظ غير عربية، وهي قليلة بحيث لا تخرج القرآن عن كونه عربياً مبيناً، وتعليل وجودها مخالطة العرب لغيرهم من الأقوام، حتى أصبحت تلك الألفاظ عربية بالاستعمال، وذكر المصنف شيئاً من تلك الألفاظ مع أدلة القائلين به، وردهم على المانعين.

باب: ذكر نكت من إعجاز القرآن، وشرائط المعجزة وحقيقتها:

إعجاز القرآن موضوع في غاية من الأهمية، وهو من الأدلة على صدق ما دعى إليه رسول اللّه ﷺ،ولهذا حين وقف عليه العقلاء من القوم الذين أرسل فيهم النبي ﷺ لم يجدوا بداً من الإيمان به، ودخلوا في دين اللّه أفواجاً.

وقد خص القرطبي هذا الموضوع بحديث مستقل،فذكر المعجزة،

وعرفها، وبين شروطها التي إذا اختل واحدة منها لم تكن معجزة،كما بين أهمية هذه الشروط، ضارباً لذلك الأمثلة، من المعقول، والأدلة من المنقول.

ولكون خوارق العادات تشترك والمعجزة في بعض الوجوه، ولأنها ستظهر على يد المسيح الدجال، وهو أمر ثابت جاء في المروي عن الصادق المصدوق،لذا نبه المصنف إلى ذلك، وأزال ما قد يلتبس على البعض من أمر هذا المسيح الذي يدعي الربوبية، في حين أن أصحاب المعجزات، وهم الأنبياء عليهم السلام يدَّعون الرسالة والنبوة، وهو فرق لا يغفل عنه عاقل.

بعد هذا بيّن المصنف أنواع المعجزات، وصنفها ضربين، ما اشتهر نقله وانقرض عصره بموت النبي ﷺ،وما تواترت الأخبار بصحته وحصوله، وتناقله جمع عن جمع يستحيل في العادة تواطؤهم على الكذب، وهي المعجزة الباقية إلى قيام الساعة لنبينا ﷺ، في الوقت الذي انقرضت معجزة كل نبي بانقراضه، وأدخلها التبديل والتغيير، كالتوراة والإنجيل.

وذكر المصنف أن العلماء قد ذكروا وجوهاً لإعجازالقرآن وقع بها التحدي للمشركين، فكان إفحاماً لهم،عجزوا، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة، أن يأتوا بشيء من مثله.

وقد اختار المصنف عشرة من وجوه الإعجاز، مما استحسنها العلماء، فكان ناقلاً أميناً لها،وأضاف إليها ما جادت به قريحته مما فتح اللّه به عليه، ثم تصدى لما قالته بعض الفرق الضالة،ونطقت به الألسن المضللة، في إعجاز القرآن، ففند بحمد اللّه أراءهم بالدليل والحجة، ورد على النظَّام

الذي تولى كبر القول بالصرفة، وعلى أتباعه من القدرية، وأثناء الرد ذكر المصنف نتفاً من فصاحة القرآن، وبلاغته الذي به كان معجزاً.

وأنهى الباب بعد أن أثبت أن بلاغة الكتاب في أعلى طبقات الإحسان، وأرفع درجات الإيجاز والبيان،بل إنه متجاوز للإحسان والإجادة إلى حيز الإرباء والزيادة.ومعجزة كل رسول هي من جنس أبرع ما اشتهر به عصره، وكان العرب أصحاب فصاحة وبيان، فكان الإعجاز في البلاغة والبيان.

باب: التنبيه على أحاديث وضعت في فضل سور القرآن وغيره:

حذر رسول اللّه عليه أفضل الصلاة والسلام، من الكذب عليه فقال: «اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم، فمن كذب عليَّ متعمداً فليتبؤ مقعده من النار » ؛ الحديث، ولذا بين القرطبي أن الرسول ﷺ كان يعلم أنه سيكذب عليه، لهذا خوف أمته وحذرهم من ذلك.

فأشار في هذا الباب إلى أن أغراض الواضعين على رسول اللّه ﷺ متفاوتة، وأهدافهم متباينة، وهم أصناف أربعة:

صنف أراد بعمله إيقاع الريب في قلوب المؤمنين، وتشكيك الناس بأمر دينهم،وهؤلاء هم قوم فسدت قلوبهم،وهم الزنادقة ومن شايعهم.

وصنف وضعوا ذلك لهوى يدعون الناس إليه، كما فعلت الخوارج.

وصنف ثالث حَسُنت نواياهم وساء فعلهم حسبوا أنهم يحسنون صنعاً، كذبوا على رسول اللّه ﷺ حسبة وتقرباً إلى اللّه بزعمهم،كما فِعْلُ أبي عصمة وغيره، حين وضعوا لكل سورة فضيلة.

وصنف رابع أرادوا أن يسترزقوا،فوضعوا على رسول اللّه ﷺ أحاديث اختلقوا ألفاظها، ووضعوا لها أسانيد صحيحة حفظوها،يقفون في الأسواق والمساجد يتقوّلون على رسول اللّه ﷺ.

وقد ذكر المصنف لكل نوع أمثلة، وأنهى الباب بالتنبيه إلى الاعتصام بالسنة وبما ثبت عن رسول اللّه ﷺ ففيه الغنية عن غيره.

باب: ما جاء من الحجة في الرد على من طعن في القرآن، وخالف مصحف عثمان بالزيادة والنقصان:

أجمع أهل السنة والجماعة على أن من ادعى أن في القرآن زيادة أو نقصان كان كافراً راداً لكتاب اللّه ولما جاء به رسول اللّه ﷺ.

ولأهمية هذا الباب وقف المصنف في وجه الزائغين عن الملة، الممهدين الطريق لأهل الكفر والإلحاد،ليدخلوا في القرآن ما يحلون به عُرا الإسلام،ولهذا الأمر جاء هذا الباب وهو الأخير في الترتيب مستفيضاً يزيد من همة القارىء لدراسة التفسير، ويجدد نشاطه بعد تلك الجولة في فنون علوم القرآن التي زينت بها المقدمة وهو مطمئن مسلح بكل ما يرد كيد الكائدين، من الأدلة والحجج والبراهين.

وكل ما أراد المصنف إيراده هنا جاء في ست صفحات، وقف فيها بقوة وصلابة في وجه العصبة الهالكة، القائلة بوقوع الزيادة والنقصان في كتاب اللّه، تريد به إبطال الشريعة.نقل في هذه الصفحات إجماع الأمة، من أهل السنة والجماعة على كفر من ادعى الزيادة والنقصان في كتاب اللّه، فمدعي ذلك مبطل لما أجمعت عليه الأمة من أن كتاب اللّه محفوظ في الصدور، مقروء بالألسنة، مكتوب في المصاحف، معلومة على الاضطرار سوره وآياته، مبرأة من الزيادة والنقصان حروفه وكلماته.

ومدعي ذلك مبطل لآية رسول اللّه ﷺ، فالمقدور عليه ليس بآية.

ومدعي ذلك راد لقوله تعالى ﴿قُل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[الإسراء: ٨٨]

والمصنف يشير بما ذكره، وبما نقله عن ابن الأنباري، إلى طائفة الرافضة من الشيعة وممن شايعهم من الطاعنين في كتاب اللّه.

غير أن اللّه جلَّت قدرته، قد قيَّض لكتابه جماعة من أهل الفضل والعقل في كل زمان ومكان، ينفون عن كتابه قول المبطلين وتحريف الزائغين، حارسين الشريعة من مكايد أهل العداوة والكفر.

كما تعرض المصنف لما ادعاه الزائغون من وجود سقط في بعض المواضع من مصحف عثمان، وزيادة في مواضع أخرى وضعت على علم

من عثمان والصحابة، وليست من القرآن، وأن المصحف الذي بين أيدينا مشتمل على حروف مفسدة مغيرة نتيجة التصحيف،وادعى الأفاكون أن عثمان ﷺ قد أخطأ حين أسند أمر الجمع إلى زيد بن ثابت،وعلى ذلك أباحوا لأنفسهم مخالفة مصحف عثمان.

كل هذه المزاعم أورد المصنف لها أمثلة، وأحال القارىء إلى مواطن الرد التي فند فيها مثل هذه المزاعم،توخياً للاختصار،ومنعاً للتكرار، غير أنه سرد ردود أبي بكر الأنباري وهو فارس في هذا الميدان على هذه المزاعم، وإبطاله لها بالحجة والدليل.

بقي ما يَرِدُ على لسان ثلة من السلف رضي اللّه عنهم مما يشبه الزيادة، فذكرهاالمصنف أجزل اللّه له المثوبة وبين أنه لم ينقل عن أحد من أهل العلم أن الصلاة بها جائزة، ولا أن جاحدها يكون كافراً، بخلاف مصحف عثمان،فإن منكر بعضه مرتد يستتاب،وإلا ضربت عنقه.

يريد المصنف بهذا أن يقول إن ما ورد على لسان السلف مما كان من هذا القبيل هو تفسير وبيان، وهو ما يسمى عند أهل العلم بالقراءة التفسيرية، أو أنه مما نسخ لفظه وحكمه،أو لفظه دون حكمه.

وختم الباب بالتنبيه إلى أن اللّه تعالى قد تكفل بحفظ كتابه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]وفي هذا الحفظ دليل على كفر مدعي النقص أو الزيادة، كما أورد في النهاية جملة من الآيات القرآنية التي زاد فيها الأفاكون، وتقوّلوا فيها على اللّه عز وجل وجل، فرد زعمهم،

وفند ادعاءهم، وحكم بكفرهم.

رابعاً: منهج القرطبي في مقدمته:

قبل أن يستعرض لنا القرطبي العلوم التي رأى أنه يحسن لطالب العلم الإحاطة بها، قدم توطئة بين فيها ما يريد التنبيه إليه كعادة المفسرين، وكان مما بينه في هذه التوطئة شرطه في الكتاب ولكون مقدمته جزءاً من كتابه فإن ما ذكره ينطبق عليها وإن كانت بصلب الكتاب ألصق.

فمن شرطه إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنفيها، وهو منهج التزمه المصنف في أغلب مقدمته، وجاء هذا الالتزام مطرداً إلا ما ندر، فالمصنف يرى أن من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله.

وللقرطبي في إضافة الأقوال إلى قائليها طريقتان:

الأولى: التصريح باسم القائل، مع المصدر الذي استقى منه المعلومة، وهو كثير،ومن أمثلة ذلك: **في باب ما يلزم قارىء القرآن وحامله من تعظيم القرآن وحرمته**،قال: قال الحكيم الترمذي أبو عبد اللّه في نوادر الأصول: فمن حرمة القرآن ألا يمسه إلا طاهر.....الخ[1]ونقل عنه ما يربو على ثلاث صفحات.

ومثال ذلك أيضاً: ما نقله عن أبي بكر الأنباري في ثنايا حديثه عن

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٢٧.

جمع المصحف، قال: وقد ذكر أبو بكر الأنباري في كتاب الرد..[١]،يريد بذلك كتاب الرد على من خالف مصحف عثمان.

الثانية: أن يشير إلى القائل،ويصرح باسمه أو كنيته أو لقبه، دون أن يذكر المصدر،وغالباً ما يسلك هذا النهج مع أصحاب المصنفات المشهورين بمصنفاتهم كالبخاري وابن عطية وغيرهما،إذ المتبادر عند ذكر البخاري هو صحيحه، وعند ذكر ابن عطية هو تفسيره.ومن أمثلة ذلك ما نقله في باب: ما جاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأي: قال: قال ابن عطية: ومعنى الحديث في مغيبات القرآن وتفسير مجمله، ونحو هذا مما لا سبيل إليه إلا بتوفيق من اللّه تعالى....[٢]

والمصنف يريد بعمله هذا أن يضع بين يدي القارىء مصدر المعلومة لمن أراد التوسع أو التأكد، كما أنه يرفع بذلك من القيمة العلمية للمعلومة،لكون مصادره في مجملها من أمهات الكتب المعتمدة.

ونادراً ما يعدل المصنف عن هذا النهج، فلا يصرح باسم القائل

---

(١)انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٥٨، وينظر المزيد من الأمثلة في الصفحات: ١/ ٥،٣٩،٥٨،٥٩.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٣١، وينظر المزيد من الأمثلة في الصفحات: ١/ ٨،٥٩،٧٣.

مكتفياً بقوله: قال علماؤنا، أو: قال بعض العلماء.[١]

وكما أضاف الأقوال إلى قائليها، عزا الأحاديث والآثار إلى مخرجيها ومصنفاتها، ويستطيع المرء أن يلخص منهج القرطبي في الاستشهاد بالأحاديث والآثار في النقاط التالية:

١) أن غالب ما أورده، واستشهد به عزاه لمن خرجه أو ذكره، وما تركه دون عزو قليل نادر.[٢]

٢) قد يستقصي من خرج الرواية، ويورد السند.[٣]

٣) ينقل حكم الأئمة على الروايات في أحايين كثيرة، وما كان منها في الصحيحين اكتفى بالعزو دليلاً على صحتها.[٤]

٤) إذا ورد في سند إحدى الروايات من هو محل نظر،بين القول فيه مع ذكر أقوال الأئمة لبيان حاله.[٥]

٥) إذا ورد في الروايات لفظة غامضة، بينها، ووضح معناها،والمراد

---

(١)انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٥٥ وينظر المزيد من الأمثلة في الصفحات: ١/ ١٧، ٢٦، ٣٣، ٤٦.

(٢)انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٥، ٧، ٩، ١١، ١٨.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٨، ٢٣، ٨٣.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١/ ١٠، ٣٢، ٥٨.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٧، ٣٦.

منها.[١]

٦) الروايات التي قد يختلف في توجيه المراد منها يوجهها،أو ينقل توجيه العلماء لها.[٢]

هذا وقد يكتفي المصنف في العزو بالبناء للمجهول، فيورد الأثر بلفظ: روي.ومثل هذا قليل نادر[٣].

وبين المصنف سبب تبنيه لمنهجه في العزو فيقول: كثيراًما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهماً لا يعرف من أخرجه إلا من اطّلع على كتب الحديث، فيبقى من لا خبرة له بذلك حائراً، لا يعرف الصحيح من السقيم، ومعرفة ذلك علم جسيم، فلا يقبل من الاحتجاج به، ولا الاستدلال حتى يضيفه إلى من خرجه من الأئمة الأعلام، والثقات المشاهير من علماء الإسلام.[٤]فكأن الإمام القرطبي رحمه اللّه أراد بمنهجه هذا تكملة النقص في بعض المؤلفات التي تهمل عزو الأحاديث، وإعانة للقارىء مقدراً حاجته إلى معرفة صحة الأثر من ضعفه.

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١/ ١٣،١٧،٢٨،٤٩.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١/ ١٢،١٦،٧٨ وللمزيد من الأمثلة على ما سبق ينظر: ١/ ٣_٥_١٠_١١_٢٣_٤٠ ٤٢ ٥٠.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١/ ١٠.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٣.

والمصنف رحمه اللّه لا يقتصر في الاستشهاد على ما يورده أو يتبناه من الآراء على الأحاديث والآثار، بل يذكر من أقوال العلماء المعتبرين في الفنون التي يتعرض لها ما يؤيد به الرأي الذي ارتضاه، أو عرضه، ويضرب لذلك من الأمثلة ما يوضح به المقال، كما أنه لا يغفل عن الاحتكام إلى اللغةوالاستشهاد بالشعر،إذا دعى الأمر لذلك.(١)

ولكون كثير مما تعرض له المصنف في مقدمته مسائل خلافية تباينت آراء العلماء فيها فقد اتخذ منهجاً واضحاً في مناقشة مثل هذه المسائل، يتمثل في الآتي:

١) ذكر المسألة المختلف فيها.

٢) تعيين أصحاب الخلاف في الغالب، وبيان وجهة كل فريق مع إيراد أدلتهم ومناقشاتهم.

٣) الترجيح بين الأقوال، والرد على المخالفين، وذكر الأدلة المرجحة.

وأشير هنا إلى أن القرطبي غالباً ما يكون موفقاً في اختياراته.(٢)

هذا وإذا رأى المصنف أن في الذي رجحه وتبناه من الرأي، إشكالاً

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٥٤و٥٦.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١/ ١٣-١٥-٣٣.

قد يفسد على القارئ مسوغات الترجيح، أسرع بذكر الإشكال وبالتالي رده وتفنيده[١].

ومن المحمود في منهج القرطبي رحمه اللّه إحالة القارئ إلى مزيد بيان، ومزيد من الأدلة في ثنايا التفسير، وذلك خشية الإطالة، خاصة إذا كانت المسألة التي تطرق لها متشعبة تحتاج إلى أكثر من وقفة، وقد تكون الإحالة إلى غير التفسير مما هو من مظان المسألة[٢].

ومن منهج المصنف أيضاً أنه إذا استدل بنص من أقوال أحد العلماء، ورأى أنه لم يذكر من الأدلة ما يطمئن به القارئ، أو أنه لم يجمع أطراف المسألة، فترك ما يراه المصنف أن من الأهمية ذكره، تولى هو ذلك، فذكر من الأدلة المزيد، ومن الرأي والقول ما يجمع به أطراف المسألة.[٣]

وأخيراً.. فإن القرطبي لا يترك المسائل التي يتطرق لها حتى يشبعها درساً وتمحيصاً وتحليلاً على ما يناسب المقدمة.

خامساً: بيان مدى التزام المصنف في تفسيره بما ذكره في مقدمته:

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٦٩ وينظر المزيد من الأمثلة في الصفحات: ١/ ٥١، ٥٣، ٥٦، ٨١.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٥٣-٦٤.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٣٠ وينظر المزيد من الأمثلة في الصفحات: ١/ ٣٠، ٣١، ٤٨، ٥٧.

في التقديم الذي قدمه القرطبي بين يدي تفسيره اشترط لكتابه عدة أمور:

فاشترط أولاً أن يُضمِّن كتابه نكتاً من التفسير والنكات والإعراب والقراءات، وأن يرد في مواطن الرد على أهل الزيغ والضلالات، وأن يذكر الأحاديث والآثار الشاهدة على اختياراته في الأحكام ونزول الآيات، موضحاً ما أشكل منها بأقاويل السلف واختيارات الخلف.

وهي شروط التزمها المصنف بحق، فالقارئ في التفسير يقف على شواهد عديدة لكل جزئية من الجزئيات السابقة، فهو يذكر الإعراب والقراءات[١]، ويرد على الزيغ والضلالات كما أسماهم[٢]، ويذكر الأحاديث والآثار ويستشهد بها على المسائل[٣]، كما يذكر الأحكام المستنبطة من الآية أو الآيات، ويورد أقوال الأئمة في ذلك مبيناً رأيه في أحايين كثيرة.[٤]

ومن شرطه إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنفيها، وهو

---

(١) انظر: أمثلة ذلك: ١/ ٢١١-٣٠٠-٢/ ٣٧٧-٣/ ٣٢٧.

(٢) انظر: أمثلة ذلك: ١/ ١٩٣-٣٧٨-٤/ ٤٧-٧٣.

(٣) انظر: أمثلة ذلك: ٢/ ١٨٩-٣٩٤.

(٤) انظر: أمثلة ذلك: ١/ ١٩٨-٢٢٨-٣٠٧-٢/ ٢١٢-٣٣٣-٣٥٤.

شرط التزمه المصنف إلى حد كبير في تفسيره.[١]

كما تعهد المصنف بأن يضرب عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرخين، ويقصد به القصص الإسرائيلي، إلا ما لا بد منه، ولا غنى عنه، وهو شرط التزمه المصنف، فإذا ذكر القصة تعقبها ووقف من بعضها موقف الناقد يبيِّن ما عليها[٢]، وقد يذكرها دون الوقوف عليها، بل يمررها كما جاءت، وغالب ما هو من هذا الباب إنما هي تلك التي لا دليل على ردها ولا على قبولها[٣]، وقد يفوته فيذكر بعض القصص التي بطلانها ظاهر دون أن يرد عليها، وما هو من هذا القبيل قليل، واللّه أعلم[٤].

سادساً: مصادر المؤلف في مقدمته:

تعد المصادر التي يعتمدها المصنف في التأليف من الدلائل الهامة على مكانة ما صنفه، قبولاً ورداً، ضعفاً وقوةً، فالذي يعتمد في التصنيف على أمهات الكتب، لمن عرف بعلوّ القدر وسموّ المكانة بين أهل العلم، يكون تصنيفه في الغالب مفيداً، خاصة إذا كان المصنف من أهل العلم.

والقارئ في مقدمة القرطبي يلاحظ بوضوح كثرة دوران أسماء

---

(١) انظر: أمثلة ذلك: ١/ ٢٤٩-٣٧٧-٤٢٥-٢/ ١٥١-٢٦٦.

(٢) انظر: أمثلة ذلك: ٦/ ١٣٢-٧/ ٣٣٨.

(٣) انظر: أمثلة ذلك: ٢/ ١٢٠-٩/ ٦٨-١١/ ٢٠٠.

(٤) انظر: أمثلة ذلك: ٩/ ٣١-١٦٩-١٥/ ١٦٦.

الأعلام من العلماء، والمشهور من المصنفات، يورد المصنف أقوالهم، ويستشهد بأدلتهم، ويستأنس بآرائهم، ويعتمد الكثير منها.

وقد كثرت مصادر المقدمة حتى جاوزت الخمسين مصدراً، في فنون العلم والمعرفة، من التفاسير والمؤلفات في علوم القرآن، ومصنفات الحديث، وكتب اللغة وغيرها.

فمن **كتب التفسير وعلوم القرآن** التي أكثر النقل عنها:

١) المحرر الوجيز في تفسير كتاب اللّه العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي[١].

٢) جامع البيان عن تأويل القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري[٢].

٣) الرد على من خالف مصحف عثمان، لأبي بكر بن الأنباري[٣].

كما نقل عن القاضي أبي بكر الباقلاني[٤]، وأبي عبيد القاسم بن سلام[٥]، وأبي عمرو الداني.[٦]

---

(١) انظر: أمثلة ذلك: ١/ ٢٤-٣٢-٣٧-٤٤-٥٤-٦٨-٧٦.

(٢) انظر أمثلة ذلك: ١/ ١١-١٥-٢١-٤٢-٥١-٦٨.

(٣) انظر أمثلة ذلك: ١/ ٥-٨-٢٣-٣٢-٣٥-٤٠-٥٣-٥٨-٦١-٨١.

(٤) انظر أمثلة ذلك: ١/ ١١-٤٣-٤٥-٥٧-٦٨-٧٤-٨٤.

(٥) انظر أمثلة ذلك: ١/ ٥-٤٣-٨٤.

(٦) انظر أمثلة ذلك: ١/ ٣٩-٦٤-٦٧.

ومن مصادره التي اعتمدها في **الحديث والآثار وشروحها**:

الكتب الستة، صحيح الإمام البخاري[١] وصحيح الإمام مسلم[٢]، سنن الإمام الترمذي[٣]، وسنن الإمام النسائي[٤]، وسنن الإمام ابن ماجه[٥]، وسنن الإمام أبي داود[٦].

ومن **المسانيد**: مسند الدارمي[٧]، ومسند أبي داود الطيالسي[٨].

---

(١) انظر أمثلة ذلك: ١/ ٦-١٠-١٣-٣٩-٤٨-٥٤-٥٦.

(٢) انظر أمثلة ذلك: ١/ ٧-١١-٢٠-٢٩-٤١-٤٨-٤٩-٥٨.

(٣) انظر أمثلة ذلك: ١/ ٤-٨-١٠-١٨-٥٤.

(٤) انظر أمثلة ذلك: ١/ ٨-١١.

(٥) انظر أمثلة ذلك: ١/ ٨.

(٦) انظر أمثلة ذلك: ١/ ١١-١٨-٣٢-٤٣.

وأبو داود هو: سليمان بن الأشعث بن شداد بن عمرو، اختلف في اسم جده، إمام حافظ مقدم، لقب بشيخ السنة، ومحدث البصرة، قال الحاكم: أبو داود إمام أهل الحديث في عصره بلا مدافعة، له السنن، توفي (٢٧٥هـ). انظر: تاريخ بغداد للخطيب: ٩/ ٥٥- وسير أعلام النبلاء للذهبي: ١٣/ ٢٠٣.

(٧) انظر أمثلة ذلك: ١/ ٧-٨.والدارمي هو عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي، إمام حافظ ثبت متقن، له المسند، توفي(٢٥٥هـ) انظر: تاريخ بغداد للخطيب: ١٠/ ٢٩- وسير أعلام النبلاء للذهبي: ١٢/ ٢٢٤.

(٨) انظر أمثلة ذلك: ١/ ٩-٧٩.

وقد كان جلّ اعتماده في الشروح على التمهيد لابن عبد البر[١].

وفي **اللغة** معجم الصحاح للجوهري[٢].

ومن مصادره أيضاً نوادر الأصول للحكيم الترمذي[٣]، والمصاحف لابن أبي داود[٤]، والجامع لابن وهبة[٥]. وغير ذلك.

ومن مصادر المصنف **التي لم يصرح فيها باسم المصدر، مكتفياً باسم المصنف** : أبو الحسن البطال [٦] ، وابن حبان البستي [٧]،

---

(١) انظر أمثلة ذلك: ١/ ٥-١٨-٣٧-٤٣-٥٦-٧٨.

(٢) انظر مثال ذلك: ١/ ١٢.

والجوهري هو: إسماعيل بن حمّاد التركي الجوهري، إمام يضرب به المثل في ضبط اللغة، وفي حسن الخط، له الصحاح، توفي (٣٩٣هـ) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٧/ ٨٠-وشذرات الذهب لابن عماد: ٣/ ١٤٢.

(٣) انظر أمثلة ذلك: ١/ ١٧-٢٧.

(٤) انظر مثال ذلك: ١/ ٤٥.

وابن أبي داود هو عبد اللّه بن أبي داود بن سليمان الأشعث، أبو بكر السجستاني، شيخ بغداد، تكلم فيه أبوه، له المصاحف، توفي (٣١٦هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٣/ ٢٢١-وشذرات الذهب لابن عماد: ٢/ ٢٧٣.

(٥) انظر مثال ذلك: ١/ ٥٩.

(٦) انظر أمثلة ذلك: ١١- ١٥- ٥٤- ٦١.

(٧) انظر أمثلة ذلك: ١/ ١٣-٤٢.

وابن حبان هو محمد بن حبان بن أحمد البستي، ثقة نبيل من حفاظ الآثار وفقهاء الدين له الثقات، توفي (٣٥٤هـ) انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي: ٣/ ٩٢٠-والوافي بالوفيات=

والخطابي[١]، وأبو بكر الخطيب البغدادي[٢] والأوزاعي[٣]، وسعيد بن منصور[٤]، وعبد الرزاق صاحب التفسير[٥] وابن الصلاح[٦] وغيرهم.

سابعاً: أهم مزايا مقدمة القرطبي:

١- إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث والآثار إلى مصنفاتها.

=للصفدي: ٢/ ٣١٧.

(١) انظر أمثلة ذلك: ١/ ١١-٣٨-٤٣-٥٩.

والخطابي هو حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي، حافظ لغوي صاحب تصانيف، وله معالم السنن، توفي (٣٨٨هـ). انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان: ٢/ ٢١٤-وسير أعلام النبلاء للذهبي: ١٧/ ٢٣.

(٢) انظر مثال ذلك: ١/ ٣٦.

(٣) انظر مثال ذلك: ١/ ٣٩.

والأوزاعي هو: عبد الرحمن بن عمرو بن أبي عمرو الأوزاعي، إمام في الحديث، ثقة مأمون فاضل، توفي (١٥٧هـ) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ٧/ ١٠٧-وتهذيب التهذيب لابن حجر: ٦/ ١٣٨.

(٤) انظر مثال ذلك: ١/ ٣٩.

وسعيد بن منصور بن شعبة الخراساني المروزي، ثقة صاحب سنن، توفي (٢٢٩هـ). انظر: التاريخ الكبير للبخاري: ٣/ ٥١٦-وتهذيب التهذيب لابن حجر: ٤/ ٨٩.

(٥) انظر مثال ذلك: ١/ ٣٩.

(٦) انظر أمثلة ذلك: ١/ ٧٣-٧٩.

obeikandl.com

٢- الاستقصاء والشمولية عند بحث المسائل.

٣- سلامة المنهج، مع حسن عرض الموضوعات.

٤- عرض الآراء بعبارة سهلة، والتعقيب عليها ومناقشتها.

٥- تنوع المصادر مع أهميتها.

٦- محاولة المصنف ربط بعض مسائل علوم القرآن بالواقع.

أظهر المآخذ:

١- إغفال بعض الموضوعات كقواعد الترجيح.

٢- ذكر بعض المسائل دون أدلتها.

٣- تعرضه لمسائل فرعية ليست ذات أهمية كبرى بحيث تذكر في المقدمة مثل الفصل الذي خصه في الرد على الحلولية والحشوية.

٤- التوسع في ذكر بعض الموضوعات، مثل الأبواب التي خصها لفضائل القرآن.

هذا ما عرفته عن مقدمة القرطبي، وأستغفر اللّه من الخطأ والزلل في القول.

obeikandl.com

١٠- تسهيل السبيل لعلوم التنزيل

لمحمد بن أحمد بن محمد بن جزيّ الكلبي ت (٧٤١هـ)

أولاً: التعريف بالمؤلف:

مؤلف هذا التفسير هو محمد بن أحمد بن عبد اللّه بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف بن جزي الكلبي، المكنى بأبي القاسم، والمشتهر بابن جُزي بالتصغير.

ولد المصنف يوم الخميس تاسع ربيع الثاني عام ثلاثة وتسعين وستمائة للهجرة المباركة (٦٩٣هـ)، في غرناطة مأوى العلماء وملاذهم بعد سقوط قرطبة وغيرها من عواصم العلم في الأندلس[١].

وينحدر المصنف من أسرة عربية أصيلة، فهو من قبيلة كلب اليمانية[٢]، وينتمي لأسرة علم كابراً عن كابر، وبيته من البيوتات المشهورة بالمغرب والأندلس، المعروفة بالعلم والنباهة والأصالة[٣]، تربى في حجر والده العالم، الذي كان محموداً من أهل العلم، وتلقى عنه أبجديات العلوم حتى قوي عوده، فقرأ على بعض مشايخ غرناطة، كابن الزبير وابن الكماد

---

(١) انظر نفح الطيب للمقري: ٨/ ٣٠.

(٢) نسبة إلى كلب بن وبرة بن تغلب بن قضاعة.

(٣) انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب: ٣/ ٢٠-ونفح الطيب للمقري: ١/ ١٤٢.

وغيرهما ممن عرفوا بالنباهة والصبر على التدريس والملازمة، وانتقل من شيخ إلى شيخ، حتى حاز قصب السبق في فنون عديدة، وتصدر لمهمات كثيرة.

مكانته العلمية:

ظهر نبوغ ابن جُزي منذ اليفاعة، حين تقدم خطيباً بالمسجد الأعظم من بلده وهو في حداثة سنه، وتدرج منذ ذلك الحين مرقاة أهل العلم، واشتهر كواحد من أفاضل العلماء المعدودين، ولهذا حين ذكره الداودي قال عنه: كان يرحمه اللّه على طريقة مثلى، من العكوف على العلم والاشتغال بالنظر والتقييد والتدوين، فقيهاً حافظاً قائماً على التدريس، مشاركاً في فنون، من عربية، وأصول، وقراءات، وحديث، وأدب، حُفَظَةً للتفسير، مستوعباً للأقوال، جمَّاعة للكتب، ملوكي الخزانة، حسن المجلس، ممتع المحاضرة، صحيح الباطن، تقدم خطيباً بالمسجد الأعظم من بلده على حداثة سنه، فاتفق على فضله، وجرى على سنن أصله.[1]

ولمكانته أسند إليه يرحمه اللّه أمور ومهمات عديدة فاشتغل بالتدريس ردحاً من الزمن وتخرج به أناس كثيرون، يقول في مقدمته: وإن اللّه أنعم عليَّ بأن شغلني بخدمة القرآن وتعلمه وتعليمه، وشغفني بتفهم معانيه،

---

(١) انظر: طبقات المفسرين للداودي: ٢/ ٨٥.

وتحصيل علومه..[١]

كما أُسْنِدَ إليه مهمة الخطابة والإمامة منذ وقت مبكر، وكان من أهل الفتيا بغرناطة[٢]، هذا فضلاً عن اهتمامه البالغ بالتصنيف والتأليف.

والناظر في المصادر التي درست الأندلس وتعرضت للفترة التي عاشها ابن جزي يجد الاهتمام البالغ بشخصية ابن جزي حيث أظهرته تلك المصادر في غاية التقدير عالماً مربياً يعتز به، ومجاهداً باسلاً يعتمد عليه.

شيوخه وتلامذته:

تهيأ لابن جزي أمران جعلا منه طالب علم جادّ، يكثر التلقي ويتابع الشيوخ:

أما **الأول** فلكون أبيه من أهل العلم، فهو إذاً يعرف قدر العلماء ومكانتهم.

وأما **الثاني**: فلكونه كان يملك أرضاً زراعية تدرُّ عليه غَلة وافرة، تكفيه مؤْنَة العيش، وتعينه على التفرغ التام لطلب العلم حتى سن متقدمة. هذا إضافة إلى نباهته، وما أودعه اللّه في نفسه من الشغوف بالعلم والتحصيل.

---

(١) انظر المقدمة: ١/ ٤.

(٢) انظر: نثير الجمان للداية: ١٦٥.

وقد كثر **شيوخ ابن جزي** حتى صنَّف فهرساً بأسمائهم، وأذكر منهم:

أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي[١].

وأبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن الكماد.[٢] وغيرهم كثير.

والملاحظ في شيوخ ابن جزي أنهم كانوا من ذوي الهمم العالية، ومن المؤثرين في الحياة العامة، وظهر تأثر ابن جزي بهم واضحاً من خلال مشاركاته العديدة في الجهاد والانخراط في صفوف المقاتلين.

أما **تلامذة ابن جزي** فقد تخرج به أناس علماء، وخلق كثير، منهم:

محمد بن عبد اللّه السلماني المعروف بابن الخطيب[٣].

---

(١) هو أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، صدر العلماء المقرئين في عصره، عرف عنه الصبر في الطلب، والصلابة في الحق، له البرهان في ترتيب سور القرآن، توفي(٧٠٨هـ). انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب: ١/ ١٨٨، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر: ١/ ٨٩، والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني: ١/ ٣٣.

(٢) هو محمد بن أحمد بن داود بن موسى اللخمي المعروف بابن الكماد، فقيه مقرئ محدث، عُرف عنه الزهدوالتقشف، له الممتع في تهذيب المقنع، في القراءات، توفي (٧١٢هـ). انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب: ٣/ ٦٠، وغاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري: ٢/ ٦٣، والديباج المذهب لابن فرحون: ٢/ ٢٧٩.

(٣) هو لسان الدين محمد بن عبد اللّه السلماني المعروف بابن الخطيب، كاتب شاعر أديب، ذو الوزارتين، قتل خنقاً في (٧٧٦هـ) انظر: مقدمة الإحاطة في أخبار غرناطة لابن=

وأبو الحسن علي بن عبد اللّه الجذامي الشهير بالنباهي[١] وغيرهم.

مؤلفاته:

دوَّن ابن جُزيٍّ الكثير وصنَّف، وفرط المسامع وشنَّف، كما يقول لسان الدين الخطيب: ولم يزل يسلك طريق المجتهدين، فدون في الفقه دواوين، وسفر في علم اللسان عن وجه الإحسان، ورحل في علم التفسير إلى كل طية، وأركض في أغراضه كل مطية، حتى أنشأ الزمخشري وابن عطية، وله من الأدب حفظ وافر، ومذهب عن الحسن سافر[٢].

كما كان له-رحمه اللّه- اهتمام وإلمام جيدين بالشعر، تمثل ذلك في الرقاق والمدائح النبوية، وقد احتفظ لسان الدين الخطيب بجملة طيبة منها[٣].

=الخطيب: ١/ ٣-٧١، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر: ٣/ ٤٦٩ط١، والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني: ٢/ ٩١.

(١) هو علي بن عبد اللّه بن الحسن الجذامي، الشهير بالنباهي، عالم من أسرة علم، كان بينه وبين ابن الخطيب ودٌّ، تحول إلى عداوة حتى أصبح من المحرضين على ابن الخطيب، له تاريخ قضاة الأندلس، توفي بعد (٧٩٢هـ)

انظر: نثير الجمان لابن الأحمر: ١٧٠-وأزهار الرياض في أخبار عياض للمقري: ٢/ ٥.

(٢) انظر: أوصاف الناس في التاريخ والصلات لابن الخطيب: ٢٧.

(٣) انظر: الكتيبة الكامنة لابن الخطيب: ٤٦.

ومع ما أسداه العلماء من الثناء على المصنف إلا أن مصنفاته لم تنل الشهرة المطلوبة، ولا وجدت من طلبة العلم الإقبال المرتقب، عدا تفسيره الذي كان له في المغرب شأواً خاصاً ثم حين طبع وتيسر أمره اقتناه المشارقة واعتمد أهل العلم آراءه.

ومن مؤلفات المصنف:

١) التسهيل لعلوم التنزيل، وهو تفسيره المطبوع وهو موضوع البحث.

٢) المختصر البارع في قراءة نافع.

٣) أصول القراءة الستة غير نافع.

٤) وسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم.

٥) الدعوات والأذكار المخرجة من صحيح الأخبار.

٦) القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية.

٧) فهرس ابن جزي.

٨) الأنوار السَّنية في الكلمات السُّنية.

٩) التنبيه على مذهب الشافعية والحنفية.

obeikandl.com

١٠) تقريب الوصول إلى علم الأصول[١].

وفاته:

طالما تمنى ابن جزي الشهادة في سبيل اللّه والموت في ساحات الوغى، يقول الفقيه المحدث ابن الوزير أبو بكر بن ذي الوزارتين ابن الحكيم: أنشدني-ابن جزي - يوم الوقيعة من آخر شعره قوله:

قَصْدي المؤمَّل في جَهْري وإسْرَاري ومَطْلَبي من إلهي الواحد الباري
شهادة في سبيلِ اللّهِ خالصة تمحو ذنوبي وتنجيني من النار
إن المعاصي رجس لا يطهرها إلا الصوارم في أيمان كفار

ثم قال: في هذا اليوم أرجو أن يعطيني اللّه ما سألته في هذه الأبيات.

وأعطاه اللّه مسألته واستجاب دعوته كذا أمر اللّه مع الصادقين، واستشهد يرحمه اللّه ضحوة يوم الاثنين السابع من جمادى الأولى عام واحد وأربعين وسبعمائة (٧٤١هـ) في ساحة الجهاد، وهو يشحذ الهمم، ويحرض المجاهدين، ويثبت بصائرهم[٢].

---

(١) انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب: ٣/ ٢٠-٢٣- وطبقات المفسرين للداودي: ٢/ ٨٦.

(٢) انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب: ٣/ ٣١، وطبقات المفسرين للداودي: ٢/ ٨٧.

وينظر للمزيد في ترجمة: ابن جزي الكلبي ومنهجه في التفسير، لعلي بن محمد الزبيري: ١/ ٤٣ وما بعده. - والإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب: ٣/ ٢٠-=

ثانياً: التعريف بالتفسير والمقدمة:

احتل تفسير ابن جزي (التسهيل لعلوم التنزيل) مكانة مرموقة لدى أهل المغرب العربي عامة، واشتهر أيما شهرة. لعظيم ما ضمنه المصنف من المعاني، ولما فتح اللّه به عليه من البيان، غير أنه بقي مغموراً لدى المشارقة، فلم يكتب له الشهرة والانتشار التي تخرجه من ذاك الحصار الذي ضرب عليه في المغرب نتيجة الظروف التي تعرضت لها الأندلس، إضافة إلى ظهور تفاسير لأناس احتلوا مكانة علمية مرموقة في المشرق في عصره أمثال أبي حيان وابن كثير وغيرهما.

ويعد تفسير ابن جزي هذا آخر التفاسير الأندلسية التي تناولت القرآن جميعه، وهو آخر تفسير يصل إلينا من تلك الديار، وقد استطاع المصنف أن يقدمه في صورة رائعة، بعبارة قوية، وجمل رصينة، وأسلوب جمع فيه بين الإيجاز وحسن العرض دون أن يخل بالمعاني المراد بيانها، يورد الجزء أو

=وأوصاف الناس في التواريخ والصلات، لسان الدين ابن الخطيب: ٢٧- ودرة الحجال في أسماء الرجال، لابن القاضي المكناسي: ٢/ ١١٧- والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلاني: ٣/ ٣١٥ط محمد سيد جاد الحق- والديباج المذهب لابن فرحون: ٢/ ٢٧٤- وطبقات المفسرين للداودي: ٢/ ٨٥- وغاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري: ٢/ ٨٣- ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري: ٨/ ٦١ط محمد محيي الدين عبد الحميد- ونيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتي، على على هامش الديباج المذهب: ٢٣٨.

الجملة من الآية ويفسرها مستقلة. ولهذا وصفه بعضهم بأنه تفسير جملي - إن صح التعبير-.

حاول المصنف إيراد أقوال المفسرين في بيان الآية بعبارة مختصرة، مسخراً ما أوتي من العلوم والمعارف لخدمة التفسير، فجمع بين التفسير بالمأثور والتفسير بالاجتهاد المبني على القواعد وأدوات التفسير، وإن كان الغالب جانب الرواية.

وقد أولى المصنف الجانب اللغوي اهتماماً خاصاً وقدراً كبيراً من العناية، حتى أنه خصص مقدمة لبيان معاني الكلمات والمفردات التي يكثر دورانها في القرآن الكريم، وبذلك يعد ابن جزي رائد هذا النهج والمبتدع فيه- وإن لم يحذو حذوه أحد من العلماء فيما أعلم - لقد استغنى بعمله هذا عن تكرار القول في بيان تلك المعاني اللغوية التي تضخم من حجم الكتاب.

والتفسير مليء بالنكات البلاغية والتوجيهات النحوية، فالمصنف صاحب قدم راسخة في هذا الباب، كما أنه لا يتوانى عن اللجوء إلى الشعر باعتباره ديوان العرب لبيان الألفاظ الغريبة.

هذا واهتم المصنف بأسباب النزول، غير أنه اختصر القول التزاماً بالمنهج الذي رسمه، وهو الاختصار والإيجاز، وله وقفات محمودة حيال القصص والإسرائيليات، فقد ألزم نفسه بأن لا يذكر من القصص إلا ما ورد في الحديث الصحيح، ولهذا انتقد المصنف بشدة أولئك الذين أكثروا

من ذكر الإسرائيليات، وحشدوا القصص في تفاسيرهم، ونبه إلى أنهم قد ذكروا ما لا يجوز ذكره.

وذكر المصنف الهدف من عمله. والغاية التي توخاها من تأليفه، وهي أمور أربعة: جمع كثير من العلم في كتاب صغير، مع إضافة ما جادت به القريحة من النكات والفوائد، وإيضاح المشكل من المعاني، والتحقيق في أقوال المفسرين لتمييز الصحيح من السقيم.

وللحق فإن شهرة تفسير ابن جزي لا توازي إجادته، ولا تعدل إبداعه.

وقد قدم ابن جزي لتصنيفه (التسهيل لعلوم التنزيل) خطبة ومقدمتان، أما المقدمتان فإحداهما في أبواب نافعة، وقواعد كلية جامعة، وأما الأخرى ففي بيان المعاني التي كثر دورانها في كتاب اللّه، وأما خطبة الكتاب فلبيان المنهج والغرض من التأليف.

ثم ضمَّنَ المقدمة الأولى اثنا عشر باباً، منها أبواب لم يسبق إليها المصنف مثل هذا الموضع، كالذي جعل عنوانه: المعاني والعلوم التي تضمنها القرآن، وكالباب الذي خصه للحديث عن الوقف. كما أنه انفرد بين المفسرين-في حدود علمي-بمقدمته الثانية في تفسير معاني اللغات، والتي استهدف منها أموراً ثلاثة كما ذكر: تيسير تلك الكلمات والمعاني للحفظ، جعلها كالأصول الجامعة لمعاني التفسير، وأخيراً الاختصار بحيث يستغنى عن ذكرها في صلب التفسير.

وهذا العمل من المصنف اجتهاد منه، غير أنني أرى أن إيراد المعاني في سياق الآية لها مدلولها الخاص، وفصل المصنف للكلمة من موقعها، وإلزامه القارئ بالعودة إلى مقدمته لمعرفة المراد من مفردة ما، فيه تشتيت للذهن وبتر للمعاني. فكان الأولى أن لا يستغني عن البيان في موضعه من الآية، ويبقى ما في المقدمة لمن أراد التوسع في معنى المفردة.

وقد نافت المقدمتان مع خطبة الكتاب على خمسين صفحة من القطع المتوسط، استطاع المصنف أن يضيف شيئاً جديداً إلى هذا الفن، وأن يعالج المسائل المطروقة برؤية جادة، ونظرة فاحصة، فالمصنف لم يكن تبعاً في الذي أورده، بل تجده معتداً بنفسه، يقدم رأيه بوضوح وثبات.

ومع ما جاء فيها من الآراء والمناقشات فإن تأثيرها لم يظهر في المتأخرين، حتى أولئك الجماعين في علوم القرآن، فأصحاب المصنفات لم يعتمدوه مرجعاً لهم، ولا تطرقوا لآراء المصنف، ولعل ذلك يعود إلى عدم شهرة الكتاب، فإن السيوطي فارس هذا الشأن لم يذكر ابن جزي في إتقانه، ولا ذكره في كتابه الذي خصه لذكر المفسرين (طبقات المفسرين)، ولهذا استدركه تلميذه الداودي، فأورد له ترجمة مختصرة في طبقاته.

وحين طبع الكتاب، وانتشر في العهد الأخير، وتناقله طلبة العلم، وجدنا اسم ابن جزي يتردد على صفحات المؤلفات المختصة في الدراسات القرآنية، كما وجدنا لآرائه صداً طيباً، سواء في علوم القرآن خاصة أو في التفسير عامة، حتى خُصَّ بدراسة مستفيضة أظهرت كثيراً من الجوانب

الشخصية والعلمية المتفوقة في حياة ابن جزي.

وقد **طبعت المقدمة** مع الأصل عدة طبعات نذكر منها:

١) دار الكتب الحديثة - مصر ١٩٧٣م، بتحقيق الأساتذين: محمد عبد المنعم اليونسي، وإبراهيم عطوة عوض - وهي الطبعة التي اعتمدتها في هذه الدراسة. وهي في أربعة مجلدات.

٢) المكتبة التجارية الكبرى، مصر ١٣٥٥هـ الطبعة الأولى، وكانت هي المرة الأولى التي يطبع فيها التفسير، أربعة أجزاء في مجلد واحد.

٣) دار الكتاب العربي، لبنان ١٣٩٣هـ وهي مصورة عن سابقتها.

٤) دار الكتاب العربي، لبنان ١٤٠٣ه، أربعة أجزاء في مجلد واحد.

ثالثاً: عرض موضوعات المقدمة:

أثنى المصنف على اللّه منزل الكتاب الحاوي للعلوم النافعة، والبراهين القاطعة على كونه المعجزة الباقية، وشكره تعالى على ما خصه به من الخصائص العلية، وثنى الشكر له سبحانه بإرساله خير رسول بلّغ ما أنزل إليه من ربه، حتى أقام الحجة، وأظهر الحق وفصّل الخطاب، ثم تحدث عن شرف علم القرآن، تعلُّمه وتعليمه، وشكر المسدي على ما وجهه إليه من الشغل بخدمة كتابه، حتى عرف المصنفات في بيان معانيه، واختلاف المصنفين في النهج الذي ساروا عليه، والمنحى الذي سلكوه، والمذهب الذي ارتضوه، وكلاً وعد اللّه الحسنى، وبين أنه رغب في سلوك طريقهم،

والانخراط في مساق فريقهم، ليظهر ما يريد بيانه مما حواه صدره، واستقر عليه رأيه، فشرع في هذا التفسير الذي قصد منه جمع كثير من العلم في كتاب صغير تسهيلاً وتقريباً، بعبارة مختصرة، بعد التمحيص والتدقيق، وحذف فضول القول والتطويل، وإضافة ما جادت به القريحة من الفوائد والنكت مما هو من بنات الصدر وينابيع الذكر، ثم عدم الإغفال عن إيضاح المشكلات وحلّ المقفلات ورفع الاحتمالات، وأخيراً التحقيق في الأقوال بطرح السقيم وتمييز الراجح القويم.

عقب ذلك شرع المصنف في بيان المنهج الذي سلكه في تصنيفه، وبين أنه قدم بين يدي تفسيره مقدمتين نافعتين، ليطلب من اللّه جعل عمله هذا خالصاً مبروراً، وليبدأ بأولى المقدمات التي جعلها في اثني عشر باباً.

المقدمة الأولى: وفيها اثنا عشر باباً.

هذا في الجملة وإلا فقد تعرض فيها لأكثر من عشرين موضوعاً، وأثبت ما يراه من القول دون أن يوغل في مناقشة الأراء أو يكثر من الأدلة.

وقد سودت المقدمة بأبوابها أكثر من عشرين صفحة، وكانت أولى الموضوعات المطروحة هو نزول القرآن.

الباب الأول: نزول القرآن على رسول اللّه ﷺ:

تحت هذه التسمية تعرض المصنف لأكثر من موضوع، فذكر أولاً مدة نزول الوحي على الرسول ﷺ في كلٍّ من مكة والمدينة، وسنّه ﷺ وقتئذٍ،